أجراس صغيرة

قصص قصيرة

محمَّد عطية محمود

الكتاب: أجراس صغيرة .. قصص قصيرة

الكاتب: محمَّد عطية محمود

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

محمود ، محمَّد عطية

أجراس صغيرة .. قصص قصيرة / محمَّد عطية محمود

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

162 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **2 – 605 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **23130 / 2018**

أجراس صغيرة

قصص قصيرة



الإهداء

إلى قلق البدايات، وطزاجتها، وعفويتها،

وإلى من ستظل أرواحهم قناديل

نعبر بها دروب الحياة والإبداع الصعبة،

ونحن لا ندري

وإلى تلك الأجراس التي تدق

كي تذكرني دائما بتلك البدايات

محمد

على حافة الحلم

رحيل

أتأمل فنجاني هذا، والحب في قلبي يتدفق.. يعلو دبيبه،
أحسه.. أكاد أسمعه. من فرط خوفي مما في هذا الفنجان
أسأل سيدتي عما فيه:
"خير إن شاء الله يا ولدى.. سكتك سالكة"

(فاتتنى رؤياك الآن، وبالأمس، وقبل الأمس فلم أعد أحتمل مكابدة الأشواق).

قالت لي هامسة: "سأراك..".. لم أرها حتى الآن، وها أنا ذا أستعد للرحيل.. رحيل إلى عالم بعيد لا يحكمه إلا قوانين الغربة وظلمتها الموحشة. هذا ما قاله الفنجان ولم تنبئني به سيدتي، خائفة من أن أرحل..

(هي) أيضا خائفة لكنها لا تبوح..

قطرات الماء تتساقط، وتترقرق في جدولنا الصغير.. من ربوتنا العزيزة التي ما زالت منتعشة. حتى هذا المكان لم أتركه، ولم أتخل عنه رغم قرب الرحيل.. لقاؤنا كان عند تلك الربوة الجميلة.. الآن أنا في انتظار رغم ما سيحققه لي ذلك الرحيل من أحلام؛ فمحطتنا هذه نقطة ما بين رحيل ورحيل.

ساعات الأمس تذكرني بأول لقاء، ولحظات اليوم تذكرني بيأس العمر الجديد.

لم تعودنا هذا المكان، وهذه اللقيا.. ولماذا عند كل رحيل؟.. ولماذا الفراق؟

خطوط فنجاني تشير إلى طول الرحيل.. سيدتي تشير بالبقاء، وهي لا تدري ما أبغيه من وراء الرحيل..

بلدتنا واحدة.. قلوبنا مجتمعة.. عقل كل منا في اتجاه، لكن التفاهم زاد.. لم زاد؟.. لم أحيا دون ما زاد، وما اختلفنا فيه، وما اجتمعنا عليه؟

(حتى هذه الساعات الجسام.. حتى ما يبقى من هذا العمر الفاني في الحب والغربة، وعناق الأيام السعيد منها والحزين.. لا أجدك وسط زحمة الأشياء).

مازلت أمام هذا الفنجان، وما زالت خطوطه تتقاطع وتتشابك.. تتوالى كنسيج ليس لأوله أخر.. (هي) في منتصف هذا النسيج، و(أنا) في منتصف الطريق إليه.

يئست من الانتظار.. حان الرحيل

سيدتي تقول "كتب الله لك السلامة وعافاك"

تثاقلت خطواتي في منتصف الطريق – لا أبصره – عاودتني فكرة الانتظار، ولكن كل شيء تحلق فيه حتمية الرحيل.

اتخذت مكاني بين ركاب الرحلة. لم أحاول أن أرى شيئا.. أي شيء. همسات رقيقة في أذني: "ألم أقل لك سأراك"

أهمس أنا أيضا: "يبدو أن زمن الـــ...... انتظار، سيطول".

عناصر الصورة

أشعة الشمس الذهبية التي تنعكس من على سبائك
الذهب الموشاة بها ناصيتك، لا يفوتها أن تعكس ما
بعينيك من حنان. صوت الكروان الذي يصحبنا في كل
طلعة نهار نلتقي فيه، ونجري بين الحقول مع ضحكات
رنانة في لحظات منسية من عمر الزمان.

اجتمعت هذه العناصر المضيئة المطلة من ماض غير بعيد.

كلمات اللوم والعتاب تختلط بنظرات الود والتساؤل في ظل طفولة عابثة بأطراف حياة لا يبدو منها إلا اللعب والسرور. يتداخل الشيء ونقيضه في ظل حزم الآباء ومرح صبية صغار. تنتهي أيام الود الصافية على كلمات تقال ممن لهم مقام الأمر.

"لقد صرت رجلا، واخضر شاربك وحان وقت الجد والعمل"

"لقد صرت فتاة ولا داعي لاختلاطك مع شاب يملأ عقلك بأي كلام فارغ"

كلمات رنانة تحمل الجد وتقتل في داخلها الود. عنصر مهم من عناصر الصورة الجديدة .

أيام الشباب تطلع على عاطفة محمومة، وميل شديد، وتكتم وحذر.. ثم بوح بعلاقة ما.. هكذا كانت بدايتنا. وأنتِ كما أنتِ صامتة دائما. والقلوب المتحجرة لا تأخذ سبيلا إلى الرقة، تقطع سبيل الود بجمل باهتات قمعا لعواطف مجتمعة.. تقذف بها في طريق مسدود لكنه بلا

نهاية.. تشعل البداية دون أن تدري.. تفرط في زرع الحزن، ولا تدري أنها تفرط في زرع الحب في قلوب لا تعرف إلا هو. عناصر أخرى تضاف لصورة مشوهة.

يتدخل القدر في مسيرتنا، يكسر خط السير الذي امتد بلا نهاية، في صورة لا يمكن أن أراك فيها وقد أصابك السقم بشبحه الهلامي. وأعود إلى موطننا القديم بين شجرة نقش عليها قلب يخترقه سهم أوله اسمك وآخره اسمي، وحائط دوننا عليه تاريخ كل يوم تلاقينا فيه.

أعود لنفسي أجدها خاوية خائفة، فلم تعتد هذه الوحشة رغم أن المكان لم يتغير. أطلال الذكرى لا تريد الانتظار، وتشعل في القلب وحشة تداهم الوجدان.. يصير المكان كهفا لا يعرف الدفء

وأتجاوز حدود وحدتي.. أمضى في سبيل آخر، علني أجد فيه عنك جوابا.. أجد القلوب المتحجرة قد جاوزت عقدتها الأبدية، تبدأ في البحث عن دواء يشفي؛ علّ الصورة تتضح معالمها مرة أخرى.

وأتيه بقلبي إليك.. أجدك مازلت تقطنين دار السقم، ويسكن جسدك ثوبه. ويتجمعون حول مكان واحد ولا يصل إليك أحد، ولا يرى إلا أنا.. ذلك أنني احتويت جميع معاني الصورة.

تتناولني أجزائي بالحفز والتشجيع على اختراق هذا الحاجز. المكتوم في صدري لا يريد التراجع، يود لو ينسل منى ويتقدم، وتأبى قدماي التقدم.. ودعوات الرجاء والتمني لا تنقطع مع أنهم يعرفون الدواء الشافي! تنفلت من زمام نفسي عبرة. ينطلق لساني فتدور كلماتي

في فضاء مشوش. تتناهى أصداؤها إلى فمي مرة ثانية، ويكمن خوفي في رعشة أطرافي وخفقاني الشديد.

تغفل عيون الليل ويروح في سكون عميق تغيب فيه النجوم عن ساحة السماء.. يتوارى القمر خلف ستار من السحب الداكنة التي لا تعرف معنى للضياء.. وأتخطى كل الأشياء، كل الهواجس فلا تجد قدماي إلا طريقا سده شبح كبير ظل يصغر ويصغر حتى تلاشى. ستائر من السواد تنزاح لتكشف عن جسد هزيل تتساقط منه كل الأشياء إلا ذاك القلب الذي اعتلى كل الأشياء ليكمل عناصر الصورة.

الضوء الأحمر

مازالت عقارب الساعة تمضي ببطء. رنين جرس الهاتف لا ينقطع، ومع كل رنة ترد (السكرتيرة): "البك المدير مشغول"، والضوء الأحمر ما زال منبثقا من المصباح أعلى باب الحجرة.

يتحول بنظره إلى (السكرتيرة). ترد عليه بنظرة مكررة تبدو رتيبة في ظل اندماجها في العمل ببعض الأوراق، والمكالمات الهاتفية التي لا تنقطع.

يقلب صفحات الجريدة بملل واضطراب. وعيناه على مصدر الضوء الأحمر تختلسان النظر إليه بين الحين والحين.

مع توتر الجو المحيط به وحرارته تتململ الأفكار في رأسه، وبالرغم من تزاحمها إلا أن فكرة العمل وحدها طاغية بشكل غير عادي إلى درجة أنها جعلته صامتا غير مبد لسؤال أو شكوى أو استعجال للدخول على صاحب العمل، كاتما داخله جملة جعلها مسكنا له: "ربما كان هذا التأخير جزءًا من الاختبار أو هو الاختبار نفسه".. "العمل بأي مؤسسة أخرى ليس بالسيىء، لكنه يختلف هنا – على حد القول – كثيرا. أينعم هنا الجو شديد الحرارة والمكان شبه مغلق لكنه أفضل كثيرا، ولا سيما الحافز"

ينحي الجريدة جانبا. يرتمي بصره على تحفة رائعة قد وضعت في هذا الركن البعيد، الذي لم يلفت انتباهه من قبل، وعلى مسافة قريبة منها لوحة أثرية رائعة لا تقل قيمة عنها.

"وجود هذه التحف هنا يدل على أن صاحب العمل رجل ثري. ويكافىء موظفيه بصورة أفضل من غيره. ثم أن تمكني من العمل في عدة تخصصات سيجعل لي نصيبا في هذا العمل"

يتحول مرة أخرى إلى (السكرتيرة) التي فرغت من عملها وراحت تنظر في الساعة، وتتصفح إحدى المجلات ـــ يقع بصره على مكتب شاغر ـــ قد ظن أنه لأحد الموظفين ـــ.

"والآن وقد مر وقت لا بأس به وهو شاغر يمكن القول بأنه لا يخص أحد الموظفين"

يراوده عقله بأنه سوف يكون مكانه في المستقبل القريب، وفي حالة إذا لم يتقدم أحد لشغل هذه الوظيفة. يطل من عينيه بريق مهيأ نفسه لابتسامة عريضة، والأمل يداعبه في تلاشي الضوء الأحمر.

تقترب ساعة الانصراف.. تبدأ (السكرتيرة) في تجميع حاجياتها، وتصلح من هندامها. باستغراب شديد يمعن في النظر إليها. تعقبه بالرد

"ربما قد تضطر للعودة غدا أو..."

وفي نفس اللحظة يتلاشى الضوء الأحمر.

يهب واقفا. يفتح باب الحجرة؛ ليهب هواء بارد يكتنف أطراف الحجرة. تخرج فتاة ترتدى بنطلونا وقميصا من (الجينز) يكادان يتفتقان من شدة التصاقهما بجسدها الفائر. يحمل وجهها المحمر إمارات السرور،

يتبعها رجل في منتصف العقد الخامس من عمره، يكمل ربط رابطة عنقه، يشير إلى المكتب الشاغر قائلا:

– هذا مكانك يا آنسة. من الغد تستطيعين تسلم العمل!!.

صرخات مكتومة

تعاظمت خطواته. ارتفعت هامته حتى ظن أنه علت كل الهامات، وأن الأرض تهتز لواقع أقدامه. ارتفعت إحدى عينيه لتلحظ ما يمكنها من ملامحها الآخذة بلبه؛ حيث وقفت بأحد أركان الشرفة المار هو أسفلها. تداعى لسمعه همس يستحيل إلى ضحكات مبتذلة.

اتئدت خطواته.. اضطربت.. اتسعت.. زادت عصبية اليد اليمنى التي تشغل حيز جيب البنطلون. حادت إحدى قدميه.. شملتها عصبية يده، اصطدمت بحجر ضئيل، ارتدت. كاد أن ينحرف عن مساره المعهود. دب شيء ما في صدره.. ارتعادة سرت من أحشائه إلى صدره الممتلئ بنبضات لا تهدأ.

ارتاد إحدى المركبات التي أوصلته إلى قلب المدنية. بين الناس هام على وجهه. اصطدمت إشارات العقل مع كل الرؤوس، كل الهامات التي فاقته وكادت تطاول السحاب. خيِّل إليه أن أحدا ما يتبعه، وأنه سوف يستوقفه ويسأله عن شيء ما. عنَّ له أن يتباطأ قليلا. تباطأ الآخر، وجاراه حين بدأت سرعته في التزايد. حينها تبين له صدق خياله. التفت في بطء، لمحه، أدار رأسه بسرعة.. اتسعت خطواته. أحاطت برأسه المشوش الهواجس. أشبعت خياله صورها المتناهية في الرقة والجمال.

تذبذبت الصورة، اهتز أحد معالمها، بدأت في التسرب من قاع رأسه المتداعي.. انفلت من زحام عابر، التفت، وجده خلفه بنفس

السرعة.. بنفس اتساع الخطوات. داخلته فكرة أن يسير حتى ترتخي أعصابه. راوده عقله في أن يستوقف هذا الذي يتبعه، ويسأله لماذا يتبعه؟. حينما هم بفعل ذلك واجهته ملامحه الجامدة التي ألجمت لسانه فمضى كما كان. تناهى إلى أذنيه مقطع من أغنية كان يترنم بها منذ فترة.. أزاحت سكونا جثم على صدره منذ خرج من منزله، وما لبثت ذاكرته أن استعادت تفاصيل وجهها الجميل. نظر خلفه فلم يجده. انساق في الترنم بكلمات الأغنية. تداخلت الكلمات مع ملامحها الغرَّاء لتكون مزيجا يعشقه غيَّبه عما حوله. أخذته قدماه إلى مكان أسماه "البقعة الزرقاء". همَّ بالدخول. عند دفع الباب تردد.. توقف برهة.. فوجىء بيد تسبق يده وتدفع الباب. اندفع من خلفه وبنبرة كأنه يألفها "من فضلك".

في ركن القاعة اقتعد مكانه المعتاد، يطل من على يساره على شارع رئيسي يعج بالعربات الفارهة والمارين. على المنضدة المقابلة بالصف الآخر، وعن يمينه جلس الآخر يتناول الشاي في تمهل وتلذذ، يختلس النظر إليه من وقت لآخر.

انشغل (هو) لفترة بدائرة الضوء الأزرق الهاديء بمنتصف المنضدة، أحس بشفافية. استرخى جسده. استدعى النادل، طلب فنجانا من القهوة التي لم يعتد شرابها!.. راح يختلس من أركان الشرفة هذا البهاء الفاتن الذي يشبع نهمه، يحول الضوء الأصفر الباهت مع الجدران الصفراء الكالحة إلى أضواء شفافة بيضاء تنبعث من وجهها.. تنفذ إلى ذاته، تلفها بطمأنينة. انبعثت من داخله ابتسامة إلى شفتيه.. حينما اقتربت منهما تحوَّل الآخر بنظره إليه.. رمقه بطرف عينه باعثا بابتسامة

ساخرة. اندفعت الدماء إلى رأسه. احمرت أذناه من شدة الاضطراب. خيِّل إليه أنه اطلع على ما يدور بداخله!

تردد بأذنيه صدى الضحكات المبتذلة المكتومة. ازدحمت الهواجس.. تكاثفت. ود لو اختفت هامته تحت المنضدة، أو اندست وسط هامات السائرين. انشغل في متابعة حركات المارة. وقعت عيناه على ملامح يعرفها جيدا.. اقتربت.. ذابت القشرة التي بين ما بداخله وما يقع حوله. أحس بنشوة احتفظ بمكنونها داخله. مرت به قشعريرة عهدها منذ كان طفلا صغيرا. مرت بجانبه فتاة تصطحب كلبا ضخما أحيط عنقه برباط من حرير، يلعق ساقيها العاريتين إلا من غلالة شفافة.

ارتد الحاجز. تلاشت صورتها. أفاق على صوت ارتطام خفيف لفنجان القهوة بحافة الكنكة. بادره الآخر بنظرة ساخرة تبعها بابتسامة باهتة؛ حوَّل نظره إلى الخلف حيث بالخارج صورة لفاتنة رائعة الجمال، تداخلت خطوطها مع الصورة التي تسكنه. انساق في الملامح وتركيبها. نفث الآخر دخان سيجارته. تدخلت دوائره الترابية لتضع حاجزا بينه وبين الصورة.

اندفع باب القاعة. دلفت الفتاة إلى الداخل يتبعها كلبها الضخم. ارتكزت بعين على منضدة في الركن المقابل، وتحركت الأخرى في اتجاهه. تجلت ملامحها في هذه النظرة. اختلطت قسمات الوجه مع الأخرى. انتفض ما في صدره. مضت نحو الركن المقابل. ضبابية شملت وجه الآخر حتى هيىء إليه أن معالمه قد تلاشت. اضطرب إيقاع نبضاته. زاغت عيناه. تداخلت مع التموجات الجاثمة فوق سطح فنجان القهوة التي لم

يذق لها طعما. دون أن يتحقق كوَّر بيده ورقة نقدية.. تركها على المنضدة.. أسرع إلى الخارج تتبعه خطوات الآخر بنفس السرعة.. بنفس الاتساع.. بنفس... تعلو هامات المارة هامتيهما بكثير.

الصورة... والألوان

انغمست شعيرات الفرشاة في الألوان.. تحركت بها
أناملي لتشعل الحيز الأخضر. التقمها إنسانا العينين،
خطت للبريق مسارا اهتز له وجداني. تركت فرشاتي.
عبثت بالخاتم الفضي الملتف حول بنصري الأيمن. تاهت
عيناي في أغوار سحيقة تسحبني إليها خضرة العينين.

حينما أطلت التمعن في عينيها، حدجتني بنظرة غريبة حجبت أشعة الشمس عن عصر ذلك اليوم. اهتزت ساقي.. كدت أهوي على الأرض. رأيت ابتسام عينيها، وضحكة توارت خلف خضرة امتدت لتشمل كل أيامي.

أمسكت بفرشاتي. اتجهت نحو الأنف الشامخ..

في رفعة أدنتني تحت ظل جفون العينين..

ارتعشت أناملي. ألقيت فرشاتي. استلقيت على ظهري أتشمم عبق العطر الفوّاح من أفق لا أدري غايته.

عاودت الفرشاة مسيرتها عبر السطح المتناسق، المبهر القسمات. التقى الأحمر القاني مع شفتين لم تخلقا إلا لأعذب الكلمات.

حين انتصف الربيع، وأهلت أنسام عصاري أيام الصيف الندية، تندت ممرات الروض بخطوات أنيقة. شهدت أغصان الورد

أجمل طلعة. أرهفت أذناي لتسمعا ألحانا تترقرق بكلمات كالشهد تتناهى إلى قلبي.

همسات في أذني تنعش اليد والجسد في ظلمة الليل الساكن. يداعب النوم أطراف جفوني.. تدفعني موجات شعوري إلى المزيد..

عادت فرشاتي لتتسكع، تبحث عن موطن تركن إليه بعد ما أوشكت النهاية، وتسربت الأشعة البيضاء من الثقوب. تشممت عبير اليدين التي ركن إلى إحداهما الخد الصبوح، المشرب بحمرة شفافة.

التقت الأيدي.. في المرة الأولى دسست خاتمي الفضي في بنصرها الأيمن.. في المرة الثانية دست خاتمها الفضي في بنصري الأيمن.. تعاهدنا على أن أقتحم هذا السور العالي.

أوشكت الألوان على النفاد. تدحرجت برأسي خيالات وأشباح، كانت في صحبتي منذ عهد مضى، فركت عيني في تحد. فاجأتها الأشعة الصفراء تقتحم الحجرة بكل أبعادها.

توقفت الفرشاة؛ لم تسعفها الألوان.. عند اليد توقف كل شيء..

تلقيت جريدتي اليومية، والتثاؤب يكاد يكسر فكي. تمددت على سريري. تاقت عيناي إلى العينين الخضراوين. أجفلت برهة. تصفحت الجريدة في عجالة..

على إحدى الصفحات كانت صورة فوتوغرافية انحصرت ألوانها بين الأبيض والأسود، تحت عنوان "أخبار المجتمع"

(نشرت في جريدة العرب الدولية – لندن)

مشاعر جانبية

اهتزت الحافلة.. التصقت به.. احتواها بعينيه.. أجفلت بابتسامة باهتة. في حركة المارين وراءها أحست بامتهان، أشارت إليه. أدرك ما تعنيه، انتقل خلفها وملء عينيه سرور. احتوى كتفيها بيديه منتشيا.

إلى اليمين، وعلى بعد خطوات، ومن بين الرؤوس المتزاحمة لمحته واقفا.. دون تردد وبإمعان شديد راحت تتفرس ملامح وجهه. علقت عيناها بعينيه.. خفق قلبها له.. في اللحظة سقط حاجز قوامه بضع سنين.. همست في داخلها: "مازلت كما أنت رغم..!"

انعقدت الدهشة على ملامحه، إذ لم تسقط نظرتها عن عينيه، تردد.. ثم أومأ لها. ردت عليه بإيماءة، وارتعاشة سرت داخلها– رغم ما يحتويها من دفء – وتوغلت حتى علت خفقاتها، واهتزت أهداب عينيها في حركة لا إرادية. اتقدت في داخلها جذوة ــ كانت قد انطفأت منذ زمن، عبث شيء ما في حافظة قلبها المطوية.

ترددت نظرة بينهما على حين غفلة.. أعادها.. اختلست أخرى.

تدخل رفيقها – عن غير قصد – هامسا:

– ألا يجدر بنا أن نغادر الحافلة قبل محطتنا بقليل كي نستكمل مستلزمات الرحلة؟

هزت رأسها في إهمال بالإيجاب. حاول أن يتبعها بسؤال آخر. أغلقت عليه المنافذ قائلة:

– نستطيع تدبير كل شيء فيما بعد..

عبثا حاولت العودة إلى ما كانت عليه!

تناهى صوت شجار بين صبي صغير وفتى. تعدى الفتى على الصبي بالضرب بقسوة. انتبهت على صوته – على بعد خطوات منها – يزجر الفتى في شدة، تبادلا السباب، اشتبكا بالأيدي.

استحالت نظرتها المتوددة إلى نظرة خوف دفين، همست في داخلها: "هكذا أنت دائما...!"

ابتلعت كلماتها – غير المسموعة – ونظرت بارتياب إلى رفيقها الذي وقف يرقب الموقف الخارجي في اهتمام.

اشتد الشجار. اضطربت. احمر وجهها. دب الخوف في صدرها: "لولا أنك ...."

استعرت حدة النبضات داخلها. قشعريرة سرت في بدنها المخدر. ارتباك شمل نظرة عينيها وجسدها الذي يحاول التمرد والتموج والاندفاع في دفعة واحدة.. حاولت السيطرة على مشاعرها التي أوشكت على الانفجار، تمتمت في غيظ، تعض على نواجذها.

"لن تستطيع التخلص من تمردك..."

أدرك رفيقها اضطرابها للموقف، حاول تهدئتها، وبصوت خفيض همس لها:

– هكذا أنتِ دائما لا تحتملين المتاعب الجانبية!

أخفى صدى كلماته في محاولة الانتقال بها إلى الأمام قليلا، ناظرا إلى الخلف مشدودا لما يحدث.. انتقلت وبداخلها زفرة أسى ودت لو أخرجتها، قبل أن تطفو على سطح وجهها كانت قد غاصت في بئر كبريائها الصامت. قبل أن تتوقف الحافلة بقليل فض الاشتباك.

على الطوار.. هبطت ورفيقها يأخذ بيديها في رفق..

بعينين يلتمع في كل منهما آثار دمعة متحجرة لاحت منها نظرة إلى داخل الحافلة التي بدأت في التحرك. لحظها رفيقها الذي لم يتخاذل وابتلع مرارة حلقة ومضى يتأبط ساعدها في صمت.

همسات.. وظلال..

بنظرة مستعطفة داومت تفرس ملامح وجهه المتبلدة..
غاصت في ثنايا وقسمات وجهه: من الأنف إلى العينين
الجامدتين إلى هندامه المتقارب الخطوط الداكنة.

تلفتت في نظرة دائرية إلى أركان المنتزه المترامية الأطراف. مسحت بعينيها المواطن الجميلة، تنقلت بهما من فوق العشب إلى أوراق الشجر إلى ما تحمله من أزهار متفتحة.. ثم عادت لتحملق في صاحب الكيان الهاديء، الجالس تحت شجيرة تنبثق منها زهور البنفسج يرقب انحدار الشمس نحو المغيب.

تناولتها الهمهمات والهمسات الهشة المختبئة خلف جدار صدرها المضطرب، وسط همسات الجمع ونظراتهم المؤتلفة عليها. غابت برهة ثم عادت إلى هذا الوجه القابع دون حراك.. تحركت داخلها نبضة زائدة.

في حجرة الرسم.. جلست بالقرب منه، ترقب حركات أنامله عبر اللوحة البيضاء، وهو يرسم الخطوط الرئيسية لوجه غامض. تعلقت عيناها بقسمات الوجه الوليد.. غابت في تنهيدة تخطت حدود اللوحة والحجرة كلها إلى أفق يتباعد بها حيث لا شيء إلا هي وقسمات وجهه، وروح منها تتنفس عبر مساحة الوجه الوليد.

تمدد ظله.. في خطوات بطيئة راح يجول، وبصره في أفق لا تبدو غايته.. تابعته بنظرها.

عبر الردهة المؤدية إلى البوابة اصطدمت به، علقت عيناها بعينيه، تبينت اللون العسلي الغامق، غابت فيهما لبرهة، امتزجت مع بريق العين الخاطف. قطع عليها تيهتها..

ـــ لا تؤاخذيني

من بين أزواج الجمع المتباينة انسلت.. برأس يملأه الهيام تابعت خطواته، ونظرات الجمع تلاحقها.. ترهقها.. تشعل في داخلها الرغبة في الاختباء.. في الخوض في أعماق النهر.. في القفز داخل بوتقة صاحب الكيان الجامد.. في تحطيم غشاء الصبر المكتوم.. في عناق الظل المبتور أبدا أمام كل الناس، وأمام النهر الشاهد على الوصل المقطوع الأمل. تتبعها همساتهم، وضحكة ساخرة من فتاة تتمايل على فتاها.

توغل المشط في سيل من الشعر أزبد بريقه، واهتز له القلب نشوة. تناثرت ذرات العطر عبر جو مفعم بأثير أزرق شفاف لتغلف في حرص بالغ الجيد وما وراء الأذنين. اهتز طرف الثوب الغارق في وردية ناعسة.. في رفق سحبته إلى الوراء من أمام المرآة.. تلفتت حول نفسها، غاصت في ثنايا الحلم..

في دورة أخرى من دورات الجسد والعين والقلب اشتبك طرف الثوب بأسفل المنضدة فتمزق. تحولت نظرتها المزهوة إلى يأس شملها فبدلت بالثوب آخر.

في أرجاء القاعة المزدحمة بالمدعوين راحت نظراتها النهمة تخترق التجمعات والأركان.. دارت عيناها عدة دورات.. لم تجده بينهم.. ألقت بنظراتها اليائسة، وراحت تنظر في مرآة صديقاتها المكشوفة.

توقف وجلس يتابع قرص الشمس المتدني نحو الأفق المتأرجح..
في تيهة من تيهات القدم والظل أعادت على مخيلتها مشهدا طالما يخطو نحو خيالها خطوات واسعة حيث ينطبق الظل على الظل بعيدا عن الهمسات. مرت من أمامه.. رمقها بعينين ذابلتين.. لم تعره انتباها – رغم ما يحتويها من رغبة، وانجذابها نحوه بكل ما لديها – أعطته ظلها المتكسر عبر ارتفاعات العشب وانخفاضاته.. أحست بشيء داخلها يتحرك.. يتأجج.. تتخاطف نظرات عينيه (المتتابعة) دقات قلبها.

التفتت. التقت عيناهما للحظة خاطفة. ازدادت نبضاتها.. انتحت جانبا وبداخلها شعور بأنه سوف يتبعها.. أحست بطيفه يتهادى إليها في بطء. داعبت أغصان الورود.. اتخذت من ألوانها ملاذا.. حاولت التناسي للحظة لكن طيفه سطا عليها بكل ما فيها.. انغمس كيانها في هذا الكيان المتهادي. سعادة تسربت إلى نفسها. غرفت في مشاعرها الجيّاشة. استحال الطيف المتهادي نحوها إلى همس يدغدغ حواسها المبتورة. ارتعشت أناملها وهي ممسكة بوردة حمراء. أحست بأنفاس ساخنة تتدافع خلفها اقشعرت لها. تورد خداها بحمرة الخجل. امتلأت نفسها رغبة في استطلاع وجهه. داخلها شعور بالرهبة. خانتها عيناها فالتفتت وراءها فلم تجد شيئا. امتقع وجهها.. تلاشت بسمة من عينيها اللتين برق فيهما

الوجد.. ذابت من على فمها مسحة ندية.. أحست بالدماء تتصاعد إلى وجنتيها بغزارة.. أطلت عيونهم من رؤوسهم المدسوسة خلف جدار عشقها العذري. إحساس الخجل جعلها تحس بفيض من العرق يغمرها، وشعور بأن جسدها قد تعرى تماما.

عاودت السير باهتة الظل، وفي خفايا ذاتها رغبة أكيدة لا تلين!!

***

حينما بدأ قرص الشمس في الاختفاء خلف خط الأفق، وانغمس في رمادية تنحو نحو السواد، عاودت السير تحمل بعض الورود البيضاء. في نفس المكان.. وقد شملته مسحة الغروب وران عليه صمت موحش – في عينيها – انقبضت له، وحركات ظلال محمومة تريد الارتداد، وهمسات تقطن أذنيها.. تعاودها.. تتلاشى.. ثم تعود. استحالت المعاني بداخلها إلى ظلال كئيبة تنحدر.. تتوثب.. تريد الانطلاق..

ضاقت بنفسها وحيدة. أخذتها خطواتها المتكسرة، راحت تتمتم:

"غلفت قطرات العطر جيدك دون أريج.. تقطرت الكلمات من فيك دون رنين.. تبعثر الحلم منك دون فارس أحلامك العنيد.. تحطمت خطاك الهشة خلف ظل هام على وجهه.. احترق ثوبك بحرارة أحلامك الموءودة.."

ألقت باقتها البيضاء حيث كان، وانتقلت إلى همسات العيون والأفواه .

العجز

تتسلل الأشعة الفضية.. تنسحب من تحت ظلام جاثم فوق صدر الشمس. أتشبث بوسادتي الوثيرة. ترتخي أعضائي. أتسلل إلى بوتقتي الصغيرة، المختبئة بين ضلوعي، أخرجها، ألهو بها.. يتمثل كل منا للآخر..

تدنو مني. أحاول لثمها. تختبىء. أتوه في البحث عنها، سراب يجر سرابا. تلوح لي خصلة من شعرها، تتطاير، تمتد طويلا، تجر معها كل الأشياء. ألحق بها. تدفعني.. ثم.. تلتقي أيدينا، تتشابك.. تتحول الصحراء والطرق الإسفلتية إلى طريق أخضر ممتد. فجأة.. تختبىء وراء الأشجار، تجرني وراءها. أزحف، أجد نفسي فوق إحداها. تضحك. أتقافز إليها. تمسك بي أجزاء الشجرة. أقاوم.. أعاند، أجد نفسي ممسكا بها. مستمرة هي في الضحك، تتمنع.. تحاول الهروب.. تنزلق من بين يديي، تدور حول الشجرة.. تمسك بتلابيبها. ينغرس تحت كلتا يديها رمز واحد لم أدرك معناه.. وتدور، تهز الشجرة بقوة.. تفترس الأوراق الأرض بغزارة.. تتحول إلى أريكة وثيرة.. ترتمي عليها.. أغوص فيهما. أعضاؤها تعتصر أعضائي.. ألتذ بها.. أفقد سيطرتي.. أكاد أفنى، أحاول الخروج.. تتشعب أنفاسها.. أتنفسها.. تكاد تقتلني. أعود فأجدها تجفف عرقي، تبكى لجروحي، ثم تلملم أنفاسها.

يفاجئني بصوته الأجش:

– ما بك؟.

تمتد يدي إليه بطريقة تلقائية. يأخذ بها:

- انهض .

أرتمي في أحضانه، أبكي..

- لماذا تبكي؟

يحول ذعري دون ردي. ينهرني.

- لم تعد صغيرا.. كف.

أنزوي بعيدا عنه. يحدجني بنظراته القاسية. أحول وجهي عنه.. تقصر قامتي حتى أصير قطعة من أسفل الركن القاصي (الماثلة أعلاه صورة له بالأبيض والأسود).. تبتل ملابسي عرقا.. أحس بالحر والبرد يجتمعان.. تصطك أسناني.. يعلو خفقان قلبي.. يزداد التوتر.. تند عني صرخة تزعج أعماقي المتناهية في الصغر.

تصدر منه عاصفة من الضحكات العالية الممزوجة بالسخرية والقسوة.. ثم يتلاشى شيئا فشيئا.

أشعر بأجزائي تنمو ثانية.. تعود قامتي إلى ما كانت عليه. أحاول اللحاق به لكن الخفقان يشتد، والتوتر يزداد والعرق يكاد يغتالني.

تعود إليَّ، تجذبني بشدة. تندثر أعضائي. تلتقط أحدهم، تلقي به بعيدا تجري، تتعالى ضحكاتها. أعاود البكاء. تتنازعني بعض الرغبات.

أتلفت خلفي.. أجدها وسط جماعة لا أعرفهم، أنظر إليهم بنهم.. تختلط عليَّ أشكالهم الرديئة. تختصني بكلمة.. ثم.. يتضاحكون.

أتحوَّل إلى الأمام أجده ماثلا أمامي بنفس معالمه التي يختلط فيها الأبيض مع الأسود مع...

تخترق الأشعة الصفراء الفتحات لتداعب عينا قد أفرغت ما بها من دموع ساخنة تملأ الوسادة الوثيرة، وعينا أخرى قد تركزت على الصورة (الفوتوغرافية) الماثلة..

الثوب

على المنشر امتد ساعداها؛ لينفضا عن الثوب بعض
قطرات الماء المتساقطة. في نعومة فائقة راحت الأنامل
تتلمس الحبل الممتد؛ لتشبك فيه أطراف الثوب.

أرسلت الشمس أشعتها لتخترق خلايا الثوب.. لتبخر ما علق به من ندى الفجر الرقيق. اخترقت الشمس جدارها المتفتح الجنبات. أطل عليها خيال الثوب المتأرجح من خلف النافذة.

رمشت عيناها.. تأرجح الجفن المثقل فانتفضت من فراشها واقفة. تحسست أشعة الشمس من خلال فتحات ما بين الضلفات. شدت جسمها. تمطت في ثيابها الفضفاضة الشفافة.

برقت في جدار العقل ترنيمات بندول الساعة تتهادى إلى أذنيها فتشعل القلب الواهن، وترمي على الوقت ببعد آخر تحمل مداه الدقائق والساعات.

امتد ساعداها ليلما أطراف الثوب، الذي جف وراح يطاوع نسمات الهواء فتدنيه وتبعده في رقة.. امتلأ فراغ الثوب – في عينيها – بجسمها البض المتمايل الباعث من تحت الثوب بنظرات ناعسة لا تستكين ولا تهدأ ؛ ليستقر فوق الردفين، ويستقيم خلف السيقان العاجية المنسابة.. تخترق نظرات ساهمة خلايا الثوب فيسري خدر في ثناياها، ويرتعد ما بين الصدر والجانب..

استقر الثوب فوق المنضدة.. ارتفعت درجة حرارة المكواة.. انطفأ المؤشر. سحبت نفسا عميقا، سحبت معه نسمات الهواء خصلات من شعرها إلى الوراء.

استقرت المكواة فوق الثوب. راحت يمناها تحركها في لا إرادية.

حين أعلنت الساعة دقتها (...) بوغتت، وبلفتة سريعة انتقلت عيناها إلى ما وراء النافذة.. تعرجت الخطوط المستقيمة للمكواة على الثوب. انفلت خيال عابر من وراء النافذة. تبعته بعينيها.. اهتز ما بصدرها بعنف.. اندمج مع لهفة عينيها؛ فثبتت يدها في موضع الكي.

توقف إدراكها للحظة.. انتبهت على رائحة احتراق صدر الثوب.

الحافظة

مشمرًا القميص عن ساعديه النحيلين.. يتأبط لفافة
ملابس عمله، بخطوات متواثبة.. فرحة.. قلقة..
يتحسس الورقة النقدية الجديدة في جيب سرواله
لتحتك بين أصابعه فينتشي لصوت احتكاكها،

وتعلو البسمة وجهه الذي تلون بحمرة العرق وتندت جبهته بقطراته. يلتمع بريق في عينيه. يتوقف أمام أحد الدكاكين التي تبيع المصنوعات الجلدية.

أمام إحدى الحافظات التي تاق كثيرًا إلى اقتنائها.. يقف مشدودًا متأملًا. تزيد في مساحة صدره الرغبة في اقتناء واحدة. يعبث في جيبه مداعبا ورقته النقدية التي تنعش جسده الضئيل بصوت احتكاكها المحبوب.

خلف الحجز الزجاجي يغوص برأسه.. تنازعها يده المعروقة، تمتد في فراغ (الفترينة). عبر السطح المتداخل الخشونة والنعومة تحتك بالبروزات الخشنة.. تركن إلى البقع الملساء الناعمة. تدور الحافظة بين يديه.. تتسلل.. تحتل حيز الجيب الخلفي للسروال.. تستقر فيه.. يبادره البائع:

– أي خدمة؟

يلوِّح بعينيه. تصطدمان بالبائع. تهبط رغبته قليلًا. يتحسس الورقة في جيبه ويمضي. يجتاز الشارع.. يختلط بجموع السائرين. يسرى

فراغ ما في حيز الجيب الخلفي لم يعهده. تساوره فكرة العودة والسؤال: "ربما كان الثمن مرتفعا، ولن.."

يلفظها، ويمضي متلفتًا في تردد: "ولكن المرء دائمًا في حاجة إلى ما..."

تزداد رغبته التي تتخبط مع لمحة أسف تلوح في وجهه: "نعم لا بد من..."

حين يصل إلى نهاية الشارع تتمكن الفكرة من رأسه، وتحتل الحافظة – بإصرار – جيب سرواله الخلفي.. "مهما كانت الظروف فإنه لا بد من اقتناء.. نعم.."

يستدير ليعود إلى الدكان متحسسا الورقة في جيبه. يعاوده صوت الاحتكاك.. تسحبه الخطوات – شبه اللاهثة – وسط السائرين.. أمام الدكان يتوقف.. يتثبت من وجود الحافظة.. يباغته إحساس بالتراجع.

على عتبة الدكان يمد يده إلى جيب سرواله، فلا يبدو له صوت احتكاك.. تتزايد حبيبات العرق على جبينه. ينطفىء بريق نظرته. يسري داخله خواء يسحب معه برودة لزجة.. يغوص داخل نفسه.. يتراجع.

الزهرة

اخضر العود اليابس.. ضممتها إلى صدري في قوة انتزعت منها آهة. استنامت إلى صدري، وغطى شعرها الكثيف كتفي. رحت أرقب النسمات العطرة التي تداعب الشعر والوريقات النابتة على جانبي الساق..

***

نبتت الكأس في تحد. ازدهرت خضرتها المرسومة بخضرة عينيها. تأملتها في فخر، هززت منكبيَّ متحديًا.. غطت مساحة لوم وجهها الجميل فأسفرت عن غدر حنون.. لملمت شعرها الكثيف واستكانت إلى إبطي. ضممتها منتشيا بالعبير

***

كادت تنخلع الساق من جذورها.. أسرعت فاحتويت النبت بين يدي، ونقلته إلى مكان آمن. تلفعت بشالها الأسود العتيق. احتوتني الرهبة؛ فحاولت الاستكانة إليها. تمنعت في اقتضاب. طويتها بين ذراعيَّ عنوة. التمست دفئا بين أحضانها فجاءت الرياح الباردة من خلف (شيش) النافذة لتستقر في صدري رغم الاحتواء.

***

من بين ثنايا الكأس بدت نقطة حمراء.. تحسست الساق في رفق. مسحت الطل متأملا. استجابت على غير ميعاد فطوقتني بذراعيها العاريين اللذين غمرهما دفء غريب. رحت أستقي الرحيق من بين ثنايا الكأس الحمراء القانية تغمرني اللذة .

***

ازدهرت وريقات الزهرة الحمراء..في عينيها سحر غريب. في وجنتيها لون الزهرة. في جبينها عبقها. تمتليء نفسي بعبيرها. عيون الصب تناديني.. تدفىء القلب، تشعل فيه الرغبة في مواراة السهد..

***

صفعت زجاج الشرفة رياح شديدة. فرقت وريقات الزهرة على أرض جذورها، بينما بقيت الكأس دون أوراق.

هممت بقتل الساق. بعينها الوادعتين أرجعتني، وأشارت إلى كأس أخرى يحملها فرع ثابت يتشبث بأعلى الساق.

المرآة

امتلأت مساحة المرآة بوجهه.. تلمست الأنامل
الشارب الكث في محاولة لاحتوائه.. برزت الشعيرات
البيض المتناثرة خلاله خلسة، صارت كنقاط الضوء..

في خلفية المرآة العتيقة تلاعبت الشفرة مرارا تشحذ أصول الشعيرات النابتة في وهن شديد.. تستجلب النبتة الطالعة.. تحفزها برغاوي الصابون الملتفة حول الذقن، وما فوق الشفتين. تعتلي الشفرة دومًا ما فوق الشفتين لتحدد معالم جديدة لوجه جديد.

لاحت نقطة سوداء غارقة تحت جلد البثور، سرعان ما تبعتها نقاط أخرى طفت فوق السطح المطفأ البريق. تحركت اليد تحتويها لزوجة خفيفة.. تسحبها نحو الأنف فيشيع فيه روح قديمة تتحرك في أرجاء الجسد المتراخي.

في لا إرادية تتجاوز اليد حدود الوجه.. تلامس حرف علبة (الكريم) الفارغة الجاثمة أمام المرأة، تغطيها طبقة خفيفة من التراب، تتخبط بها الأنامل.. ترتد مذعورة. جذب السواد المحلق حول العينين نظرتهما، فتحركتا في محجريهما، وانكسر شعاع منهما على طرف المرآة الملامس لحرف الجبهة المتسعة. تغورت النظرة الثاقبة فاخترقت جدار العين.. امتدت.. تعلقت بنظرات تتراقص على استحياء تلوح فيها براءة اللحظة الحلوة المذاق، وجفون تتبادل الإخفاق، وحواجز تسقط، و...

ارتدت النظرة إلى المرآة التي تكاثف البخار عليها. اقترب بوجهه. اصطدمت العينان بعينين تلوح فيهما عبرة تنظران إلى شعر متراجع على جانبي الرأس يتصدر ما فوق الأذنين مخلفًا فراغًا يشمل ما فوق الجبهة إلى الوراء. مرت اليد في وهن على الفراغ الزاحف. تبعتها الأخرى لتغطيا مساحتي جانبي الرأس.

اخترق أذنيه نداء ابنه الصغير الذي أسرع، وبساقه تعلق. لم تستجب عضلات الساق، بينما ارتدت نظرته إلى الخلف للحظة. ترددت على شفتيه ابتسامة شاحبة.

ازداد تكاثف البخار.. اختلت ملامح الوجه قليلا. تحركت اليد تحاول مسح البخار. ازداد تعلق الطفل بساقه. انسحب من أمام المرآة يحتوي ذراعه كتفي صغيره.

أصداء الذكرى

مع اصفرار ضوء الشمس وقت الأصيل استراحت إلى مقعدها الخيزران العتيق. بأنامل مرتعشة تناولت الصورة بحروفها الباهتة، وألوانها المتباينة بين الأبيض – الضارب إلى الصفرة – والأسود.

استشعرت حلاوة اللمس الريان للملامح البيضاء الشابة.. أحست بنسائم رطبة تهدهد خصلات الشعر الفاحم المتهدل على جبين ناصع.. جاست بالنظرة المتألقة الزاهية خلال الرقعة الخضراء لتتفتح لها ثغور الورد مبتسمة.. تتهامس أطياف الود.. تتعانق مع الضلال الوارفة الحانية.. يمتزج فيها الدفء مع الانتعاش.. تحفها الآمال.

تألقت العينان بضوء خافت. مصمصت شفتيها. بلا وعي سحبت إحدى جديلتيها من تحت شالها الأسود. استملحت ملمسها تحت وطأة الأنامل. غاصت ملامحها خجلة ــ في إطارها القديم ــ في ردائها الأبيض الفضفاض.. تستكين إلى رفيقها بعينيه الهادئتين، في سترة سوداء من لون شعرها.. تفوح رائحة تحتل من النفس قرارها.. تغلف أرجاءها بعبق لا يزول. تنطفيء كل الأنوار، إلا ذاك النور الذي ظل سراجه ينسج أشعته حول الصورة التي تصدرت كل المعاني قاطبة.. تقتنص من الماضي أحلى اللحظات.

انطلق الحلم فاردًا جناحيه، محتضنًا كيانين امتزجا في كيان واحد.. يتجلى في ملامح طفولية غراء.. تلتهم حنو النظرة.. تستجلب

عاطفة تسكن الأحشاء.. تزهو في عيني الوليد نفس النظرة المتألقة.. تحمل قسماته نفس السمات.. تطفو براءته فوق سطح الصورة الجامد.. تحبو أطرافه في عينيها.. هرع إليها.. تتردد في البدن مشاعر أمومة دفينة.. تتملك الأحشاء بخليط من الدفء والامتلاء.. تعود بها إلى الإحساس الأول بالامتلاء، ثم احتواء الحلم، ثم آلام مبرحة ما لبثت أن تحولت إلى غبطة تمتلك النفس.. تطفح فوق كل الآلام.. تزبد الفرحة مرات لتعلن اكتمال حبات العقد المرمرية الغالية، ومع تبلور كل حبة من حباته تمتزج الفرحة الغامرة بمشاعر الامتداد الحقيقية.

تقافزت على السطح البراق ملامح لشاب وسيم يمتد فيه هدوء ذات العينين.. تحتمي شفتاه بشارب كث.. يذيِّل الصورة إهداء: "إلى أمي الحبيبة"

عاودها خليط من الدفء والامتلاء مع إحساس بحنين لا يقاوم. تحركت رغبتها في احتضان ابن أحشائها المستقر في رحم الغربة البعيد القرار. اهتز صدرها بدموع انحدرت على وجنتيها تلثم بملحها جدار البعد بعدد آلاف الأميال.

على حيز عريض تمازجت فيه الألوان، تراصت وجوه شابة، وأخرى طفولية عابثة تحتضن جذورها العتيقة. بدت ملامحها تعترضها التجاعيد، بينما اختفى الشعر تحت غطاء يحجبه، وتوارى بهاء العينين خلف نظارة طبية. إلى جانبها تراءت بقايا من ملامح رجولية هرمة تفوح منها روائح الذبول والانزواء.

انطلقت من جنبات الصدر زفرة حزن ولدتها ذكرى آلام فراق أبدى، انزوى فيه ما تبقى من تلك الفحولة السالفة. خلّف ركامًا لا يستطيع حتى نفض غباره ما تبقى من...

انفرط عقد أمانيها، وانطوت حافظة صورها لتحتضنها بما فيها..

تمتمت بهمس خفيض؛ انحدرت دموعها حانية على الخد، لاذعة على اللسان الجاف، بينما تلملم الشمس بقايا أشعتها.

على حافة الحلم

تسللت الغفوة إلى عينيي المرهقتين، المداومتين على سهر
تلك الليلة من كل عيد حتى الصباح. توسدت خلفية
الكرسي.

تلاحقت دقات على الباب. أسرعت بفتحه. حدّقت
بعينيي متحققا، مدهوشا، حين وجدته.

كان قد غادرني منذ فترة لم أعلم فيها أين ذهب، وكيف يعيش، وبمرور الأيام نسيت أن أسأل عنه.

داخلني احساس بالرهبة. تداخلت معه رغبة في احتضانه بعنف. عبث بيّ الشك في أمره، حتى خيّل الىّ أني لا أعرفه، لكنني ضممته إلى صدري.

تساءلت في نفسي: "كم مر منذ غادرني؟"

تلمست ملابسه البيضاء الناصعة. امتدت يدي تحتضن يده.. تذوب فيها.. تكاد تختفي. أحسست بمجرى دافيء يخترق صدري نحو عينيي اللتين اغرورقتا بالدمع، ثم انهمر منهما على يديه الناصعتين.

تذكرت أنه كان كثيف شعر اليدين والصدر؛ فباغتتنى رغبة ملحّة في رؤية صدره عاريا!

سعت أناملي تتحسس وجهه النافث برائحة طيبة تعطر ما بيننا. تسرب الهدوء إلى داخلي. حفّ بدني الدفء، رغم صرير الرياح من خلال زجاج نافذتي المكسور.

كان قد غادرني في ليلة عاصفة.

احتلت مخيلتي أشياء كثيرة. تقافزت في عقلي أسئلة دون إجابات.

استراح إلى مقعده القديم. نظرت في عينيه الصافيتين اللتين تحاشيتهما منذ رأيته، اقتربت منهما أكثر.

"أين كنت؟" اقترب السؤال من لساني. وضع يده على فمي. غشيني صمت ثقيل

بالأمس رأيتني معه في أرجوحة خشبية قديمة، تدور في فضاء حجرة معتمة. دارت بنا عدة دورات، ثم انقلبت. وجدتني واقفا عند باب الحجرة الذى انفتح على الطريق، بينما أطبقت الأرجوحة عليه. تراءت لي أشباح تعدو على حائط الحجرة. اتشح كل شيء بالسواد.

تنهدت بارتياح:

- لكنك لا تعلم عني شيئا في...

قاطعني:

- كل شيء ميسر لغاية

ترددت لحظة، ثم صحبته عبر الردهة محتويا كتفه بذراعي.. تتخطى قامتي قامته بقليل .

تمدد على حافة السرير. أعطاني مسبحته ناظرا إليّ في رضى. رنت ابتسامته، صحبها أريج تحسسته فى قاع ذاكرتي المختزنة.

كان ثمة عش عنكبوت يحتل ركن السقف، لم يعد له وجود في تلك اللحظة.

دوّت في نفسى فرحة ليلة العيد التي كان يصحبني فيها حتى الصباح. في استحياء خرجت كلماتى:

– لا تنس موعدنا مع الصلاة .

أجفل راضيا. هرعت أجهز أشيائي للصلاة.. تغمرني فرحة صبيانية. استرحت إلى كرسيّ ممسكا بالمسبحة.. يشمل جسدي خدر يدغدغ حواسي. تعالت التكبيرات حتى ملأت ما حولي.

حين داهمتني الشمس بأشعتها، أحسست بشيء يتسرب من بين يديّ، وقد تشنجت عليه. أفقت ينازعني انقباض في صدري، بينما توزعت نظراتي على أشياء كثيرة، لكنها ما لبثت أن احتوت جلباب العيد الماضي، والمسبحة المعلقين على المشجب المواجه.

ترقب

على طوار المحطة، ألحّت عليّ الرغبة في معرفة الوقت.
عبثًا التصقت عيناي بعقارب ساعتي المعطلة.
تراكمات العمل لا تدع لي الفرصة كي أصلح من شأنها، وأحيانًا حتى مجرد معرفة الوقت.

في وجوه الواقفين تبدو ضبابية الصباح.. تتقافز فيها المشقات، فلا تدعو إلى الاستفسار.

في المواجهة علا قرص الشمس.. تململت في موقفي متلفتًا، وسؤال يباغتني – في شبه تقريع – "كم مر من الزمن لم تستطلع فيه الأحايين؟"

جالت عيناي في المعاصم. خذلتني الخالية منها. ألجمتني الأيدي المختبئة في الجيوب. استوقفتني صاحبة الجسد المتأجج، بملامحها المعدلة بالرتوش، وأريج عطرها المفرط، لكن عيناي سعيتا إلى موضع الساعة من معصمها. دققت لبرهة.

من طرف خفي أرسلت نظرة مستطلعة. أعقبتها بنصف التفاتة. صار سؤالها مغامرة تنحو بي بعيدًا عن ماهية ما أستفسر عنه.

لاح في طرف الموقف عجوز هادئ الوقفة، منبسط الملامح، يغلّف نظرته التي لم تحد عن أمامه، وقار حاد.. تختفي يداه خلف ظهره، يتدلى من جيب صدريته سلسلة استقر في يقيني أنها لساعة.

لم أدر – في لحظتها – لم لم أقدم على سؤاله.

تطلعت الى أول قادم. مر من أمامي خالي المعصمين.

لم أجد بدًا من الاقتراب من العجوز. حينما التفت في اتجاهه كانت ثمة غلالة تحجب جزءًا من ضوء الشمس، وكانت خطواته قد سبقت في الاتجاه المعاكس.

تمرد

(1)

تلتصق ملابسها بأجزاء من جسدها الممشوق.. تنحسر عن أجزاء أخرى.. تعانق يمناها فراغ أسفل شنطتها الجلدية الموشاة..

بلا اكتراث تشتبك يسراها بيد صغيرها.. تجتازا البوابة..

تعلو ابتسامة الترحيب وجهًا يحمله جسد متهالك.

في تأفف تجلس على طرف الدكة الخشبية الممددة بعرض الحجرة الضيقة.. تشد (الجيبة) المنحسرة عن ركبتيها إلى أسفل.. تسير إلى الصغيرة فتستكين إلى جوارها صامتة.

ينسحب الرجل خارجا.. تقابله همهمات متطلعة.. يتداعى همس متداخل: "للمرة الثانية ترتاد المكان و..."

(2)

على باب الحجرة.. يبدو بذقنه غير الحليقة. تنكفىء نظراته على الصغيرة. تهم البنت أن تقوم لتصافحه. تضغط على يدها المعتمدة إلى الدكة فتستبقيها. تشملهما بنظرة غضبى ترفع أحد ساقيها ليعلو فوق الآخر، فيتلاصق فخذاها تحت (الجيبة).

يسكن مبهوتا في موقفه.. تؤلمه النظرة المبتورة لصغيرته.. يتنازعه حنين لا يقاوم لاحتضانها..

توقظه استجواباتها المتلاحقة.. يتداخل صوتاهما في صخب بالغ. تتزوي الصغيرة بأحد الأركان..

يهرع ذات الرجل، يتبعه آخر، مستفسرين. عند قدومهما تتصاعد حدة ثورتها.. يتسرب (هو) من الحجرة خارجا.

على أثر دمعة خطت طريقا على خدها تسترسل كلماتها ساخطة

(3)

(يذوب كل شيء في مياهه الضحلة. تبدو له كل الأشياء باهتة.. تتصدرها صورة تجمعهما، يعلو إطارها الصدأ.. في قاعه تقبع عارية.. ينازلها فتقهره. عبر نسيجه المترهل.. تعترضه أطياف صغاره. يئن لها قلبه.. يدنو منها محاذرا.. يصطدم بالجسد الثائر المتسربل بأثواب عدة تزجي ناره في بدنه. رغم قرابينه يخلو مضجعه مما يشتهيه. تتزايد حاجات صغاره، لتتراكم أعباؤه. يعاود استجداء ما صار حقا مسلوبا فلا يجد ما يتقرب به. ينوء بالحمل المتراكم على عاتقه. تمتد يده مستجدية عونا على ما لا يطاق. تنمحي من مخيلته أعراض فحولة كانت تجتاح كيانه. تبدو فكرة الهروب من كل شيء أمرا ملحا لا يستطيع مقاومته)

يرفع كتفه هازئا.. يتحرك صوت بداخله صارخا.. متداخلا مع دوائره المتشابكة، لكنه يلتزم صمتا لا يقل عن صمت مكتبه الذي يحتويه بين قائميه المعدنيين.

(4)

من الحجرة تخرج.. تتبعها صغيرتها.. تغيبهما البوابة. على بعد منها يتلاقى ظلاهما مع ظل ثالث.

ق. ق. ج

تشبث

على المقعد المقابل، واجهتني ملامحها.. شعر كستنائي أسود، أنف أشم.. تحتويهما صفحة بيضاء شفافة تضفي عليها النظارة السوداء رونقا..

لم يبق سوانا في بهو الانتظار..

انحرفت بزاوية جسدها – ضامة ساقيها – تجاهي. اقتربت نظراتها مني دون أي تغيير على قسمات وجهها.

اعتدلت في مجلسي.

لحظات ساد فيها الصمت.

تسللت أمارات القلق إلى وجهها. انفرجت شفتاها للحظة ثم انطبقتا.. توطنت بداخلي ظنون عديدة.. هممت أن أحادثها..

تملكت الحيرة ملامحها.. همت واقفة.. تحاول كلتا يديها التشبث بأي شيء في فضاء البهو.

المقعد

خلا مقعد إلى جوار جميلة العينين والساقين.

انفرجت أساريري، ملت بزاوية جسدي شبه محتويا الفراغ حول المقعد..

في نظرة العجوز المتاخم كتفه لكتفي، لمحت توسلا.. لم يصمد توسله أمام شعوري بتعب يوم شاق، و...

اصطدمت بأذني صيحة امرأة تحاول الانفلات؛ لتصل إلى المكان الشاغر..

ترددت لحظة.. لسعتني فيها نظرة الجميلة؛ فتسلل صبي محتلا المكان، لحظة هيأت نفسي للجلوس.

(1993 – 2003) طبعة أولى **2003**

وخز الأمانى

وخز الأماني

اقتحم الصوت الجهورى سكون الصباح. أيقظني من
سباتي، واخزا جسدي المستسلم:
"بوستة" انتشلني المقطع الثاني من اسمي. انتفضت واقفا
ألملم جسدي، وشتات عقلي.

لم أدر كيف تسارعت تكات مزلاج بابي تحت تأثير أصابعي المرتعشة. تناولتني الدرجات الهابطة. تولتني ومضات خاطفة: (خطاب العمل المنتظر، رسالة ... ، نتيجة المسابقة، خطاب القرض، حوالة أخي المغترب)

اتسعت عيناي المتلقفتان للوجه الزاعق.. تعالجان دهشة الاستيقاظ. تعادلت البسمة المنبثقة من داخلي على شفتي المتهيئتين للاستفسار. قلّب المظروف الأصفر بين يديه. أسند عليه جدول التسليم. أشّر على جانب أحد الأسطر. ناولني المظروف قائلا:

- *(مرتجع)*.. لم يُستدل على العنوان.

نفحات

تحفني أجنحة روحك.. تحمل خطواتي المبهورة.. تدغدغ مني الحواس والأطراف.. يداعب خدرها قلبي.. تجعلني لا أهتم كثيرا، برغم اعتيادي مطالعة ملامح وجهي فى المرآة؛ كي أستعيد ملامح تطابق ملامحك المتشبعة بها ذاتي. يهتز جسمي بمشيتك. تعانق يدي عبير يدك اللينة في قوة، الشديدة في حنان.

تصحبني روحك.. تمر بي عبر بقاعك الأثيرة، حيث ما تبقى من صحاب كانوا لك، حيث ركن بالمسجد كان يؤويك.. يركن إليه ظهرك، وتعلو يسراك ركبتك المثنية، وتطوف عيناك فى الملكوت...

تهديني روحك إلى بيت العمة (شقيقة الروح).. تمتد فيها ملامحك العميقة، وسجيتك مطلقة العنان، حيث كنت أنت – هناك أيضا – المرجع والمغيث، برغم ترحالك وتطوافك فى بحار الدنيا ويابستها.

تسعى نظراتي – بسمت نظراتك – في وجهها. أكاد أسكن ثناياه، ولا تمل عيناي تعبيراته – التي هي من تعبيراتك – ولا تفارقه.. تلتصق بنفس الطينة التي تجمّلها لمحات من قسمات وجهك، ومنمنماته العبقة، ولا أكاد أفارقها، إلا لكي تحطني روحك محطا آخر، كان لك فيه مساحة من وجود.. تعانق.. تلاطف.. تشيع فى الأجواء عطرا؛ فيناديني من كان بك عارفا، بلقبك، وكنيتك.. يداعبني بعباراتك – هى ذاتها المحفورة على جدارية أيامي– يداعب فىّ صورتك، ملامحك الجاذبة،

والمعطية للود؛ فيملؤني الانتشاء طربا.. يهزني بدمع يسري تحت مسام جلدي بروح الحنين.

تعيدني خطواتي.. لا ترمي بي نحو أي طقس من طقوسي المعتادة.. أجدني أعاف المقهى، معانقة سحب الدخان، مسامرة الأفكار السكرى المتخبطة برأسي. أجدني دوما أحث الخطى عائدا إلى ملاذي، ومأواي.. في بيت دعمته أنت لي.. تحوطني فيه زهراتي الثلاث.. يتطلعون إلى صورتك الباسمة على جدرانه التي تفتقد أنفاسك.. يتشربون منها دفء الملامح، وتألق العينين الصافيتين. تسعى عيونهم فيها متأملة، كما أتأملك أنا في غفوتي، وفي أحلامي.

وتهمس أفواه الأشياء دوما في أذنيّ بصوتك.. عذبا يخترق حاجز سنين الغياب.

(نشرت بجريدة القاهرة)

تحت الرماد

على رصيف المقهى المحتل للناصية، واجهتني ملامحه. لم أجد عناءً فى تذكره.. أطفالًا كنا.. يملك كل منا حلمًا أخضر..

افترت شفتاه عن ابتسامة نصف مرحبة، نصف باردة. هممت أن أبادله التحية فى عجالة وأمضي.. استوقفني بعينيه، الغاصتين فى احمرار دوامة دخان الشيشة، المتحفزتين، المتثائبتين فى فضول متوثب.

بين الجد والهزل، تقع تضاداتنا، تحمّل الوجه بامارات الغضب و الاستياء ، و ما تلبث أن تنتهى منه بابتسامة باردة..

استنفرتني نظرته الفضولية.

لما اشتد العود، وعلت المناكب فى تحد، ازدادت أمارات الوجه حدة، اضطرم الغضب لأتفه الأسباب، تحولت الابتسامة الباردة إلى تكشيرة تعلو الجباه، وغيظ يتحمل على النواجذ..

رغم ما اعتلج فى النفس توًا، ارتقيت درجة الرصيف. غاصت يدى فى يده المتضخمة.

– تفضل..

بدت عبارته المبتورة، كأنما كانت محشورة فى فيه، ثم انفلتت.. تزاحمها سحب دخان (شيشته) المتصاعد، المختلطة مع ملامحه.. يضببها..

يشغل فراغ ما فوق رأسه.. يعلو مخفيًا معالم الصورة الزيتية الباهتة، المؤطرة بإطار قديم من الجبس بحائط المقهى المستند إليه ظهره..

عبثًا سعت يسراي محاولة إزاحة زخم الدخان المتولد. قرعني ندم لمصافحته، ويمينى ما زالت تندس فى يمينه.

يعانق النفور لقاءاتنا وسط الجمع.. تضايقني سخافة تعليقاته.. يضيق بانطلاقى وسط الصحب دونه؛ لتبرز تلك النظرة المحتدة.

بعيدًا عن العيون، تراقص العيون عيونا.. تعانق أطيافا.. يقنع من يقنع بالمراقصة العابرة.. تمتد أحبال الود لمن يراد، تزداد النظرات حدة.. تجثم على الصدر مشاعر أشد وطأة.. تتفرق بنا السبل.

بادرتني نفس النظرة المحتدة – بتبلد – تفصل بيننا سحب دخانه المتزايدة.. تفاضل كلماته بين البوح، وبين التسكع في جوفه.

بادرت بسحب يدي من يده متعللا.. تدفعني أنفاسي المختنقة:

– معذرة .. ليس في الوقت فسحة

سحبت نفسي هابطًا من الرصيف. ندت عنه ابتسامة شبه مستسلمة، مال بها إلى رفيق بالمقهى يجاوره، متهامسا، وزاوية عينه لم تفارقني.. غادرتهما.. تحتويهما غلالة الليل الهابطة في تثاقل.

(نشرت بمجلة الثقافة الجديدة المصرية بعنوان "تداعيات")

وسط الأمواج

يستبد بي كل ما حولي. تعيث في صدري آلام
الاختناق.. تدفعني دوامات.. تعبث بي.. تطوي صدري
على تلافيف أحشائي المعتصرة بألم حارق.

عبر الأزقة والشوارع المفضية إلى الكورنيش، تتلاطم خطواتي.. تتدافع.. تتخاذل.. تتراشق مع خفقات القلب المخلوع ، وضربات تقصم الظهر.

ينطلق الصوت الهادر من جوف مظلم .. يتردد صداه: "أخرج..".. يضرب بأناتي، ونظراتي المصعوقة عرض الحائط. تطمس حروفه الباطشة عقداً من الزمن، التفعت فيه أيامي بشمس حارقة.. تدثرت بزمهرير قارس، وغرقت نفسي في شقائها العنيد.

يحطم أغلالا عاشت جزءاً من كيان يسكنه التمرد.. تعجزه مرارة العيش والارتزاق.

يوغل الصوت.. يتمادى في لفظ حممه الهادرة:"لم يعد لك لدينا مكان..."

ينفث بها مع دخان سيجار غليظ، محمل بأثير التأنق، ووهج التكبر، وسط نسمات تنبعث من تكييف مكتبه الفخيم.. تقشعر لها نفسي.

الخطوات المضطربة تدفعني.. تزج بي وسط أمواج السيارات المارقة، الطاحنة لأسفلت طريق الكورنيش.. يتدحرج معها قلبي

مذعورا.. يستجدي معها جزيرة الطريق المتباعدة؛ حتى تدركها.. ترسو بها.

يعاود الصوت اختراقي. تنهب موجاته أوتار ساقيّ المجهدتين المشدودتين إلى الأرض في وهن.

على وجه الأسفلت الناعم ببحر الطريق أمامي، تتوازى خطوط بيضاء عريضة متآكلة الحواف.. تلازمها إشارات فسفورية معدنية مثبتة.. لا يتجلي ضوؤها الخافت لعينييّ المغبشتين مع دفقات السيارات المتسارعة.

يلفظ الصوت بقاياه ، ويتراجع: "لم يعد لك لدينا.."

تسعى قدماي بخطوات ملسوعة تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال.. تتحين الانفلات في خضم التتابع؛ فتقابل عينيّ أسهم دائرية غليظة.. تنسحب إلى الخلف بخطوط عريضة أخرى بمحاذاة الجزيرة، التي تغطيها آثار زخات مطر قد جفت ممتزجة بغبار الأرض.

على الجانب المقابل.. يبدو وجه مشدود على قالب معوج.. يتناثر حوله رذاذ البحر.. تسفر شفتاه الغليظتان المطبقتان على لفافة تبغ عن ابتسامة صفراء مذمومة. تسعي سحيبات زفراته المتطايرة حول صقيع عينيه، وصلعته الباردة المجدبة. تتشكل قسماته، وتتحور.. تجرني في ذعر إلى سراديب وجه تثقب نظراته المتحجرة خاطري. يفصله عن ناظريّ على البعد خط أثيري متماوج.

تتخاطف عيناي نظرات إلى الخلف.. تلتقطان المساحات الخالية عن اليمين، وعن الشمال. تناوشني نظرة ذعر متوثب، تحفر لها مكانا في قاع رأسي المعترك.. ثم تتقاطر نظراتي تائهة في خضم بحر الطريق.

سقوط الأوراق

تتوهج الأنوار. يتألق المكان. يتبارى الحضور في
استعراض أناقاتهم المتزايدة، عطورهم المفرطة. تتزايد
حزم الإضاءة حول المنصة المتجملة بباقات الورود،
وزجاجات المياه المعدنية المغلفة بورق مناديل معطرة.

فى جنبات القاعة، تدور الكاميرات المحمولة.. تقترب.. تتباعد، فى حركات (بانورامية) متوافقة. لحظات، ويسود صمت متكلف..

عندما جاءتنى بطاقة الدعوة.. داعبتني حلة زواجي القيّمة، المختزنة فى دولابي. تراقصت أمام عيني رابطة عنقي الحريرية، مع منديلها القاني (هدية زوجتي لي في عيد ميلادي). سارعت بالتقاط قميصي الحريري؛ لتسعى مكواتي في سائر أنحائه، بعد طول نسيان. كسا اللمعان حذائي الأسود. نزعت الغلاف الشفاف عن جورب جديد. داعبت عيناي عقارب الساعة المتباطئة؛ فخبر الجريدة يشير إلى أهمية هذه الاحتفالية، وموضوع ندوتها الشيق، ودعوتي إليها حدث سعيد بالنسبة لي.

يفتتح رجل المنصة فعاليات الحفل.. تتتابع الكلمات الرنانة.. تتخللها انحناءات الاحترام والتبجيل، والذوق الرفيع. يمضى الحفل كموجة منسابة، ثم يفضي الى حوار مفتوح. يتوالى الوقوف، طرح الأسئلة، المحاورات الجادة. تتفرع الموضوعات، وتنصب حتى تقوم

السيدة، المتجاهل دورها، في وجه رجل المنصة كموجة عاتية تصطدم بصخرة صمّاء.

يندلع الحوار محمومًا، متراشقًا.. تحفه النوايا المضمرة. تتسلل إليه علامات الغضب والاستياء. ينفلت الزمام. تتبادل الاتهامات، ثم الخروج من عباءة التأدب. يحط الوجوم بأشباحه. تنطفيء الأنوار الإضافية. تنسحب الكاميرات. يهرول رجل المنصة مذعورًا. يتوالى انسحاب الحضور.

من خلال الضوء الآخذ في الخفوت، وعلى أحد جانبي باب الخروج من الداخل، تواجهني لوحة زيتية لشجرة جدباء تخلو من أوراقها يستظل بها نصف جسد..

(الأهرام المسائي، وجريدة العرب العالمية – لندن)

همس الظلال

قبل أن يستريح البدن من وعثاء مسيرة شمس لافحة ،
وتراب أصفر يبعث مويجاته المتسللة، ينفتح الباب
الحديدي الصدئ.. تنجاب من خلفه رائحة العطن.

تدور عيناى فى المكان محدّقة..

النافذة المحكمة الغلق، تحميها قضبان حديدية متقاطعة..

أكوام السجلات الصفراء المتآكلة، تحتل مكتبًا.. تشرع قوائمه الصدئة في السقوط..

الأبوب الصغيرة المكتنزة، تتراص.. تكبلها أقفال صدئة..

– عليك بإزالة ما على الأقفال.. معالجة ما بالداخل .. حفظ السجلات، و...

تصدر الصوت الباب، ثم غاب عني. لم تجرؤ يداي على ملامسة الأشياء...

من كتم الأنفاس، انقباض الصدر، اشتعال الضجر، إلى هرولة القدمين خلف ظل انفلت من قسوة الحرارة المختزنة بالداخل ، وهجير الشمس بالخارج. لم أتبين إلى أي مدى توقفت نظراتي، مع توقف قدميّ عند الباب، إلا أنني أيقنت تمامًا أن ظلي عانق ظلًا يطل من فوق البناية فى سخف.

***

فى الخارج.. تبدو لعينىّ بقعة ظليلة متباعدة.

تتبلور ذرات العرق على ساعديّ، صفحة وجهي.. تسيل.. تلتحم بعرق باقي الجسد المضطرم.

بخطوات لا أسمع لها دبيبًا، يقترب.. تطالعني نظراته النافرة. تطل مني نظرة مستفسرة. تلح نظراته، لا ينبس بكلمة.. يوليني ظهره عائدًا.

أشعر بنفاد ما بجسدي من ماء. ينفطر القلب. تشرخ جدار الحلق مرارة.. تمتد لتحتوي تجاويف البطن.

تعاود خطواته وطء الأرض الترابية. تعتمل على جسدي المتداعي لزوجة تمتزج مع غبار خطواته.

على أثر صدى يعبر فى فضاء ما خلفه، تلوح منه التفاتة، ثم ترتد هامته إلى الأمام. يواصل خطواته زاعقة بطيئة. يدنو مني، حتى يكاد يلامس ساقيّ الممددتين على الأرض.

يتجهم وجهه. ينعقد السؤال على لساني. تدور عيناه فى المكان.. يبتعد قليلًا.. يشير برأسه نحو المكان الذي أتيت منه. يستدير صامتًا.. تتباعد خطواته شيئًا فشيئًا، حتى يتلاشى ظله.

(مجلة الثقافة الجديدة المصرية، وجريدة القاهرة)

خواء

احتوت عيناي المقعد الخالي، على الجانب الآخر من المنضدة تشممت عبقا يسكن ذاكرتي...
منذ احتوانا ركن المقهى، ودنا كل منا من الآخر، لامست حواسنا شجوننا، اكتوينا بنار كلينا. بات كل منا يلقي بهمومه؛ لتهوي في بئر سحيق.

عاجلني النادل بفنجاني المعتاد، مومئا بطرف عينه إلى ذات المقعد، ومضى ترتسم علامات السؤال على وجهه!!

على صوت ارتطام زهر النرد بطاولتنا، وصخب المقهى الحافل، نتجاوز حد الهمسات.. يعلو صوتانا.. نذيب ما علق بنا من بقايا شجون.. تردنا الأمسيات، كل إلى بيته، بوجه جديد.

تناولت رشفة من فنجاني المتحفز لالتهام برودة الجو المحيط.

البارحة، تقابلنا ــ عابرا ــ بعد ردح من الزمن، انقطعت فيه أسباب اللقاء.. تضاعفت فيه الآلام، ظلت حبيسة الصدور.. نضح كل وجه بما فيه صاحبه من أسى.. ألحت دواعي اللقاء بمكان البوح الأثير.

ماجت قدماي يمينا وشمالا. تبعثرت نظراتي على الأرض؛ لأثر تحركات مضطربة.. تمسحات.. خربشة في قوائم مقعدي.

لحظات، وغادر قط أعرج أسفل المقعد.. تزوغ نظراته المنكسرة نحو الشارع.

عبر زجاج النافذة، تراءى لي رفيق الأمس يجتاز الطريق إلى المقهى؛ تهللت أساريري...

حين مر بجوار النافذة، وتجاوزني، بدا لي جليا ذلك الاختلاف الشديد في الملامح و...

عدت لفنجاني البارد. عادت عيناي تتمسحان في المقعد الخالي.

خطوط.. متقاطعة

تستقبلني نسائم الصباح الرطبة، تدغدغ حواسي.
يتلقفني الميدان الفسيح الغاص في حركات بشرية آلية
مدهشة.. يلفظني نحو الشارع التجاري الطويل؛
تواجهني واجهات عرض محلاته الموصدة.

الموعد المتفق عليه لا يزال أمامه وقت حتى يحين؛ لكن العجلة تدفعني دائما إلى التبكير..

تنخرط خطواتي في مشي وئيد، تتقدم.. تتأخر.. ترتاد ــ قافلة ــ خطها المقطوع.. تعاود التوقف ــ حيث بدأت ــ عند ناصية تقاطع الشارع بآخر.

الفتاة خمرية اللون، متسقة الجسد ــ التي كانت تجلس قبالتي في (الباص).. تلفها نظراتي المتتابعة من خلف ضفتي الجريدة ــ حال بيني وبينها صعود الركاب ونزولهم. اختفت قبل أن تودعها عيناي المتشاغلتان.. الجريدة الصباحية منذ انفضت بكارة صفحاتها، عناوينها الرئيسية ثم أغلقت، لم تبارح إبطي المستكين عليها

تقحمني معدتي الخاوية في محل الوجبات السريعة. أعود بخطوات يحفها الأمل؛ أن تلحق بها خطواته نحو الناصية.

لم يخبرني من أي اتجاهات التقاطع سوف يأتي؛ حيث نبدأ إحدى محاولاتنا الجادة، لكن همسه بادرني:

- إن تعذر وصولي في الميعاد؛ فسوف يكون لقاؤنا بالمقهى

تتحرك جبال الوقت، كحركة قدميّ المقيدتين داخل حذائي. هاتفي الساكن بجيبي يلازمه خرس لا يبارحه، ولو للحظة . يأتيني فيها صوته ينبئ بقرب مجيئه . تتردد التفاتاتي نحو جهات التقاطع الأربعة.. ثم تأخذني قدماي نحو المقهى ــ قليل الرواد ــ في مواجهة السور الحجري الواطئ للبحر.

***

تنساب النقوشات عبر جدران المقهى اللامعة، زجاجية الملمس.. تتوزع بانتظام. تعترضها خطوط عريضة متقاطعة موشاة بأغصان ملتفة.. تتفاوت الألوان، وتتقارب.. تحيط بلون الخطوط الرمادي الرصين، لا يقطع تواصلها إلا حدود المربعات الفاصلة. يوقف امتدادها من أعلى إطار خشبي، يتنازع الأسود والبني الغامق لون طلائه.

أعالج كوب الشاي بحفنة من السكر. أتناول رشفة منه.. أوقن حاجته للمزيد. تبادر يدي بإخراج الهاتف من جيبي.

"ربما أدركه اتصال، ولم تلتقط رنته أذناي"

يجثم الهاتف فوق المنضدة خاليًا من أي محاولة للاتصال. يعيقني نفاد شحنة عن المبادرة بتوصيل صوتي إليه

مع رشفات من كوب الشاي، تجزعني الأولى، يقل الجزع مع الثانية، يعتاد اللسان ميوعة المذاق في الثالثة.

تعاود الأنامل اختراق صفحات الجريدة. تفاضل عيناي ما بين التوغل فيما بعد العناوين، والشرود فيما وراء السور الحجري، في انتظار قدومه.

(جريدة القاهرة)

صدأ المشاعر

أقعدوها، منفطرة القلب.. ينتفخ جفناها.. تتورم، وتتدلى شفتاها القانيتان.. يصطبغ الوجه الأبيض الحليبي بسياط من لهيب أحمر، وأشباح تعدو بباطن جفنيها المثقلين بجبال من رمال تتحرك.

بين الوعي واللاوعي، تواجهها صورة أبيها ـــ الذي رحل توا ـــ بكل ملامحها.. تسرع؛ لتلحق بسيل أشباحها.

يهيج الكيان المتمزق. يشتعل العويل. يتمرغ الجسد المكدود على الأرض. تعيي مرافقاتها محاولات انتشالها حتى تقوم. تعود؛ لتقفز.. تلطم.. تصرخ. تتكرر محاولاتهن لاحتوائها. تتملكها أعاصير داخلها المريرة. يلتوي مفصل إحدى قدميها؛ فتهوى عليها بكل ثقلها فاقدة الوعي.

حملوها، بلا حراك منها، ولا هوادة لتراتيل النواح والبكاء المعتصر، وهنيهات غيبوبية، يفصل بينها نشيج عنيف.

في صالة الانتظار بالمستشفى.. انبثقت من الأعين نظرات الإشفاق والألم؛ فالتفتت إحدى مرافقاتها – بعد أن مصمصت شفتيها – لإحدى المجاورات المنتظرات، ثم همست:

- عروس هي لم تزل، لكن الفرح أيامه قليلة.

وراحت في حوار متبادل تسرد جوانب المأساة المزدوجة .

لم يزل سرادق عزاء أبيها منصوبا، يرج أجوائه صوت المقرئ المجلجل.. ينبعث صداه؛ يصل إلى آذان مرتادي المستشفى.

على كرسي متحرك، وفى ظل مرافقاتها المتشحات بالسواد.. خرجت من حجرة الطبيب مدلاة الرأس على الصدر في وله، ممددة القدم الملفوفة في جبيرة من الجبس للانتظار حتى يسمح الطبيب بالمغادرة.

أمام الحجرة واجهها.. حليق الذقن، وشعر الرأس.. لا آثار لغبار على ملابسه المهندمة، ولا إرهاق على ملامح وجهه المتكلسة.

همست المرافقة في أذن مجاورتها، ناظرة إليه:

- هو زوجها...

ولوّت شفتيها قاطعةً سيل كلماتها.

سحب كرسيا، وجاور زوجته.. يحقن آثار غضب مقيت.

لم يبادر بسؤالها عمّا آلت إليه حالتها. اكتفى بنظراته الخاطفة نحو قدمها (المجبّرة) . حاولت فك أقفال فمها؛ فخرجت حروف كلماتها مخنوقة، مجروحة، محشورة في أحبال صوتها الممزقة.

سبقت دموعها أي كلام؛ فراحت تترع كخيوط منسابة على وجهها المتلطخ بدماء بشرتها الحليبية.

بادرته إحدى المرافقات متسائلة:

- ما بك؟

أعرض بوجهه ذي العينين الغائرتين مغمغما:

- لا شئ.

بادرته أخرى:

- زوجتك في حاجة إليك.

أشاح بيده.. موجها نظره إليها.. منفثاً لكلماته المحتقنة:

- خطيبك السابق (...)...

صمت.. ثم تابع:

- ما الذي أتى به إلى العزاء؟! ما أن رايته مقبلا نحوي.. حتى انفلتت من صف آخذي العزاء آتيا إليك.

تولته أعين النسوة المتحوطات بها بنظرات اختلط فيها الاستهجان، مع السخط، والتعجب في صمت.

رغم ما ألمّ بها.. تناهي إلي مسامعها المشوشة صوت المقرئ بسرادق العزاء واهنا.. ومن خلال عبراتها المترقرقة بعينيها المغبشتين، طالعته نظراتها العيية من أعلاه إلى أسفله، ودارت بها الدنيا.. ثمّ راحت ـــ مرة أخرى ـــ فاقدة الوعي.

(جريدة الوفد المصرية، ومجلة حواء)

الضوء.. والانكسار

ينطلق "السهم الذهبي" عائدا، يمتطي صهوة طريقه الأسفلتي الممتد، يجتاز الحد الفاصل بين إغفاءة فلول أشعة الشمس الهاربة، وأفول وشيك للشمس خلف أفق غير معلوم مداه.

في زي عملها المتناغم، تبدو بقوامها المتناسق، شعرها الذهبي المسترسل على كتفيها، خلف وجهها المائل إلى الاستطالة.. تكسوه مسحة طفيفة من المساحيق، تزيّنه عينان عسليتان.. تعلوان أنفا دقيقا، وفما مبتسما.

من مقدمة العربة، ترسل سهام عينيها.. توزعها صوب ساكني المقاعد البادين لها. تدفع قدميها في الممر. تنبّه – رغم التحذيرات المعلنة – على عدم التدخين. تسري في البدن رهبة.. تتكرر – رغم تمرسها – مع بداية كل رحلة. تطوف بالبال أشياء عدة، تكاد تجرها بعيدا.. تدنيها من صورة فارسها، تداعب خيالها المتشوق.

تستفيق.. تتوقف.. تتخير من تبدأ معه الحوار. تفك متاريس الكلام بحوار دافئ.. يتواصل.. يزيد من دفئه اندفاع صدرها بوجهها نحو

محدثها بعفوية.. يعضده عبق أنثوي متسلل.

تضيق المساحات بين الوجوه، وتتسع. تسقط فواصل، وتعلو أسوار تحكم حدود الحوار.

في رقة، تلح في عرض قائمة أصناف المشروبات والشطائر. في خفة تنتشل وجهها.. تتنقل.. تتوغل بين الصفوف العرضية، المقطوعة بالممر حتى تصل إلى المؤخرة الشاغرة.

تعود، مدوّنة ما طُلب منها. ترمق في إطلالات مشعة سريعة وجوها لم يصل إليها وهج لحظات اقترابها الخاطفة.

تتحسس عيناها جسدها على مهل. تغيب في باطن العربة، ثم تلوح صاعدة تحتضن (السرفيس)

يصير "السهم" ككتلة ضوء تخترق الظلام الدامس، تغازل أضواءاً متباعدة.. متناثرة.. متضائلة فيما حول الطريق.

تلقي بجسدها على مقعد إلى جوار القائد. تلتقط مسامعها همسا حالما بـــ (فيلم) يدور بتلفاز العربة. يطبق جفناها على صورة فارسها.. تكاد تسكرها لذة لحظات التداني.

يباغتها دخان سيجارة.. يتسلل إلى أنفها، ولا توليه انتباهًا. تهزها يد القائد؛ لتواجهها نظرته القامعة المستفسرة. تنتفض واقفة.

تسرع.. تتسمر في مكان انبعاث الزفرات. يغرز الرجل عينيه في عينيها مبتسمًا.. تشع نظرته المستغرقة بخليط من إعجاب مطارد، وتوسل. ترفع الشعر عن جبينها، تعالج به أثر فرط النظرات المفترسة. تحرك سباتها نحو المؤخرة الشاغرة، تهمس بصوت خفيض:

- إن كان لابد من التدخين.. فليكن بالمؤخرة، ولتحاذر...

وتعود.. تمسح الصفوف بعينيها الهاربتين. تداعب يدها خصلات شعرها المنسدلة، ترفعها. تشد قامتها مع صدرها المكتنز. تشعل الإيماءات، والنظرات المتناثرة حولها مكامنها المحتبسة.

يسدل الصمت ستائره، فتحتويها أريحية المقعد. يشف ذهنها المتوقد. تندلع في جوانحها الأسرار والحكايات.. تتبدى.. تتكشف.. يفرد لها الخيال بساطه؛ فتستسلم لغفوة.. ترتحل فيها، تعانقها أحلام عطشى. تتناثر بقع الضوء المتماهية. تتوه في محيطها المتسع. تلاحقها أطياف. تدنيها آمال. تتقلب على فراش من خواء.. تلملم أجزاء الحلم. تتلاشى منها. تأتيها. تعود للاندحار والتلاشي.

يلوح مدخل المدينة المبهر الأضواء. يصير بريق "السهم" باهتًا، يذوب ضوءه في محيط الضوء الباهر.

تبرز مرة أخرى من أحشاء العربة، في ملابسها الشخصية. يتدلى شعرها ملمومًا، مربوطًا خلف ظهرها. تكسو وجهها نظرة محايدة. يعلوها كدر ككدر ما بعد الصحو.

تتوغل بين المقاعد. تقوم بالتحصيل.. ثم تعود.. تلازم مقعدها الأمامي متيقظة، بينما يلج "السهم" ميدان ربوضه..

(جريدة القاهرة)، (جائزة صندوق التنمية الثقافية **2004**)

لحظة فاصلة

على باب "الهيئة" الزجاجي الغامق، تلتحم صرامة سحن الرجال – الممتلئ الأبدان – مع حللهم، ورابطات أعناقهم السوداء.. تتشابك مع أفئدتنا المشتعلة بالتوجس. تباطأت خطواتنا.. تختزل وقع ما ألّم بها.

(في لقاء الأمس الفياض بالشجون.. استغلقت علينا كل الدروب.. طاشت كل الإجابات المحتملة لشتى الأسئلة، وبدت لها عتمة تخترق سراديب النفس المتشعبة..

بادرني.. يخفف من وطأة مضاعفات الشجون:

- لم يعد أمامنا إلا التماس نقدمه)

لكزت صاحبي هامسًا:

- لنرجع.. وليحمل صندوق البريد خطابينا.

لامست يده ذراعي الساعية إلى الخلف، همس:

- لن تجدي إلا مقابلة المسئول، وتسليمه الخطابين في يده.

دفعتنا الخطوات نحو الدرجات الرخامية العريضة، المدرج جانبيها بأحواض الزهور الذابلة. غمرت الدهشة المستاءة وجوه الرجال؛ أسرع أحدهم يقفز المسافة بين الباب الزجاجي وأول الدرجات المطلة علينا من أعلى.. يرفع كفه في مواجهتنا.. يرمق الظرفين الأبيضين في يدينا.. يمنع السؤال بجواب قاطع:

- إذا كنتما تريدان المقابلة.. ؛ فالمسئول لم يحضر بعد.

قطع المسافة – من خلفه إلى اليسار – بعينين متحفزتين.. يشير إلى الشارع الجانبي المجاور متابعا.

- وعموما.. فكل ما يختص بـــ (العامّة) يتبع مكتب (المدير المختص).

خلف صفحات وجوه خاملة، استقبلتنا جثث الأوراق المتراصة بإهمال. راحت الوجوه تضاهي بين الغريب والمألوف في وجهينا.. تتمطى نظراتها العابسة.. تفزع إحداها من حقيبة نسائية مفتوحة، وأخرى من حقيبة متأهبة للفتح.. تداعب بعض الأيدي أكياس مأكولات، تستعد للالتهام، وصينية كبيرة تتزاحم فيها أكواب الشاي أسود اللون.. تعانقها نفثات من دخان سيجارة مشتعلة لتوها.

اقترب منا، بزيه الكاكي، ينفض آثار الماء عن يديه.. ينظر بإهمال مصطنع إلى ما بيدينا.. يختلس النظر خلفه.. يحرك شفتي الابتسامة الخفية الماكرة.. يدفع سبابته نحو عقله، وبصوت خفيض بادرنا:

- لن تستطيعا اختراق عقولهم قبل ساعة، وحضور رئيس المكتب الآن ضعيف احتماله.

ومضى.. يمسح يديه في (بطانة) تتدلى من جيب سترته الصفراء البارز.

***

أشعة الشمس، التي كانت تضرب في أعلى حوائط الشارع الجانبي، هبط.. تفترس الرصيف النحيل، مبقور البطن، الموازي للحائط المشبع بالرطوبة والعفن.. تباغت مؤخرتي رأسينا المحمومتين بهم الترقب، وخيوط اليأس المتشابكة.

اندفع (الركب).. يخترق البوابة الجانبية، نحو المنحنى الصاعد للرقعة ما بين الباب الرئيسي، والدرجات الرخامية.

عبثا.. أسرعت الخطى؛ لتلحق اللحظة بين فتح البوابة وغلقها؛ لنبادر فيها ــ ولو حتى ــ بالتلويح بما في يدينا.

عبر القضبان الحديدية المتوازية للبوابة المغلقة، حوطتنا أعين الرجال.. المهرولة أجسادهم حول السيارة السوداء الفارهة التي توقفت لتوها.

لقــاء

وسط حشد المشيعين..

يبدو – لك – بشعر متطاير، يكشف عن صلعة موغلة...

تبدو – له – بشارب كث، تتناثر فيه بعض الشعيرات البيض...

تتماوج – بكما – تنقلات الحشد.. تسرع الخطوات.. تهدئ.. تنجذب يمينا.. تروح شمالا.. تتقدم.. تتأخر.. تتوسم خطى الموكب المهيب. تقربكما المسافات المتفاوتة.. تباعد بينكما عشوائيتها المذهلة.. تعيدكما إلى حيث تتلامس الأنامل المتطوحة، ثم الأكتاف.

وبحس دفين تتصافح يدان.. تربت الأخريان على كتفين نحيلتين. يلهج كل لسان بعبارات ود مستتر خافتة.. ثم يحتوي كلا منكما صمت الحدث الجلل...

من خلف حاجز السنين... يأتيك ـــ كما كان يأتي ـــ يتسلق الجدار السميك العالي بين بيتك وبيته.. يقتعده. تنظر إليه بعين الوجل؛ فيمد إليك يد التجاسر.. يجذبك.. يدفع عنك رهبة الارتفاع؛ فتلاصقه.. ومع الطائرات الورقية رويدا.. رويدا تطير معه.

وعندما يأخذكما الليل الدامس من النهار العذب، تتواعدان.

ويأتي الصباح، الظهر، العصر.. يناديك أو تناديه. تملآن العمر صخبًا، مرحًا.. يجذبك، وتجذبه.. يركلك، وتركله.. يزوغ منك، وتلحقه.. وتعاودان الطيران..

ويشي بينكما واش؛ فيعتصر كلا منكما البكاء...

على انفراد، يأتي كل منكما بآخر، ويبثه شكواه، وبعد الجفاء القصير، الملول، المشحون بعتاب النفس.. تتقابلان. يدمع، وتدمع، وتتعانقان.

وتشد سفائن الحب رحالها نحو قلبيكما الغضّين؛ فيخفقان بحب محبوبة واحدة، ولا يغركما الهيام؛ تستبقيان نفسيكما لنفسيكما، ولا تنال من أي منكما خفقات القلب الدامعة.

بين الخطوات المتلعثمة، تجنح فتسبق خطواته خطواتك.. تتبادلان السبق، الجنوح، محاولات اللحاق.. يتجاذب كلا منكما على حدة شأن متجدد. وتتناثر من حولكما الرؤوس، بعد انقضاء مراسم الغياب...

تسبق يده.. تلاحقها يدك، تعينان أحد المشيعين قبل أن تزل به قدماه المهزولتان. تتلاقى أعينكما.. تقرع رأسك، وربما رأسه، عبارة:" منذ متى لم...؟!!"

وتستلمان منتصف طريق العودة المفضي إلى اتجاهين؛ فيوليك ظهره، وتأخذه خطواته.

تتحجر خطواتك، وينحشر بالجوف نداء أخرس؛ فتلزم مكان وقوفك، وتشيعه عيناك المزمومتان في مواجهة الشمس

(جريدة أخبار الأدب المصرية، وجريدة القاهرة)

واجهة للـ.. عرض

اندفعت أناملها النحيلة؛ تفك القفل الداخلي لواجهة العرض الزجاجية.. تقودها عينان دقيقتان، تبعثان بنظرات مضطربة في جوف الواجهة.

مالت بجذعها إلى الأمام. دست رأسها وسط تماثيل العرض المتأنقة، المتراصة. اقشعر بدنها الضئيل لنظرات من خلفها؛ ترصد حركة ساقيها المتأهبتين لبلوغ أرضية الواجهة المرتفعة.

اختلست نظرة للوراء، تحولت بأخرى – من خلال الزجاج – نحو الشارع الغاص...

ضمت صدرها بإحدى يديها، استندت بالأخرى إلى أحد قائمي الباب الزجاجي. ارتقت.. تبحث نظراتها – متخبطة – في أركان المقهى المواجه...

استقرت في المسافة الضيقة بين تمثالين.. تلتقط نفسًا، تدفعه زفيرًا حادًا.

كل صباح.. تجتازين (المحمودية) بـــ (المعدية)؛ فتخايل عينيك أشعة الشمس الصاعدة.. تجاهد فيكِ بقايا نعاسك المطبق على رأسك المثقل.. وتسعين وحيدة نحو (وسط البلد)...

استغرقت في الوجه الأنثوي المصمت.. الأنف الدقيق، الشفتين القانيتين المضمومتين، على قامة ممشوقة – بدلال – يسقط عن أحد

كتفيها فستان حريري بديع الألوان والتطريز.. يكشف عن كتف مستدير مكتنز، وصدر (حجري) نافر...

داعبها أريج فواح لزجاجة عطر ثمينة، وبريق أخاذ لــ (أحمر شفاه) طالعتهما عبر (فترينة) محل العطور المجاور، استطاعت – خلسة – أن تجربهما بمساعدة صديقتها بائعة العطور...

تقتسمان ما تجلبانه من طعام الغداء بالتناوب. تزاملك في طريق العودة ليلًا حتى منتصف المسافة إلى بيتك.. ثم تتركك تكملين المشوار...

تناولتها أعين المارة. بدت لها.. تباعد.. تقارب بينها وبين (فتاة العرض)؛ فاقتربت منها بجسدها قرب الالتصاق، وامتدت يدها تلتقط كُم الفستان.

دائما ما يرتدي نصف طريق عودتك الآخر ليلا عباءته الكالحة .. تداعبه على استحياء أضواء خافتة متباعدة.. تتناثر فيه على الجانبين أكوام القمامة، تلال الروث، وزجاجات شراب السعال الفارغة بكثرة.. تعدو فيه أشباح تقترب، وتتباعد.. يعبيها الثمل.

اخترق سمعها صوت أقدام تحتك بأرضية المحل. تهيأت؛ لتلبي صوتًا سوف يناديها؛ فلملمت – على عجل – جزء الفستان المتهدل؛ لتواري به شرخًا واهنًا يخترق الظهر.

(جريدة القاهرة)

مشاهد جانبية

تواصل

ضغط على أطراف قدميه.. شد جسمه الضئيل لأعلى..
ترك مقود العربة الحديدية ــ المحملة عليها بالة كرتون
قديم ــ للحظة، انحشرت فيها أصابعه في تجويف ما بين
أسنانه ولسانه.. انطلقت صفارته صوب زميله، المترامي
لبصره ، عند نهاية الشارع المكتظ.

واهنا خرج الصفير. زاعقا أتاه صوت آلة تنبيه سيارة من خلفه. هبط كعباه إلى الأرض. دفع عربته إلى الأمام، منحنيا بها؛ لتحاذي الرصيف. عاودت قدماه الارتفاع بمشطيهما، وعيناه على مدي رؤيتهما.. توقف باعثا بصفيره الآخذ في القوة، والمتقطع.

اندلع صــوت من داخل أحد المحلات زاجرا إياه. أوقف صفيره. أشاح بيده. عاود دفع العربة وسط الطريق. حينما لمح زميله يتباعد، توقف.. ارتقى بأطرافه مرة أخرى.. بعث بصفيره متتابعا.. زاعقا بأقصى ما لديه.

من على الرصيف، ومن داخل المحلات، ومن خلف مقاود السيارات.. تدافعت عليه الأصوات.. تدفق السباب.. لكن صفيره ظل يتصاعد بلا كلل حتى التفت زميله، وتواصل صفيرهما معا...

توهج

يمر كل يوم.. في الشارع، والشوارع المجاورة.. في موجات دفعه لفرنه المتنقل – المحمول فوق العربة – تطرد مدخنته دخانها الخابي؛ فيعمل على إذكاء النار...

يتصاعد الدخان.. يملأ عنق المدخنة.. يخرج.. يلف الأهرامات الثلاثة، الملتصقة بظهر الفرن الأسطواني كثلاث رايات مشرعة. يغطي الكفين (الخمسة وخميسة) المتصدرين لمقدمة الفرن.. ينتشر في الجو ممتزجًا برائحة الكيروسين المحترق.. يزكم الأنوف.. يخنق الصدور.. يتسلل زخمه عبر النوافذ والشرفات إلى الداخل.

في مقابلة الريح.. يتحول الدخان ناحيته.. يتفرق حول لفظ الجلالة المثبت أعلى الباب الصغير للفرن. يلفح وجهه؛ فيغمض عينيه.. تتابع دفقاته سباقها نحو رئتيه.

يسعل.. يحشرج بصوت مبحوح.. يتنحنح.. ثم يعلو صوته مناديًا على (بضاعته) المشوية.

طلة

تعالى صياحه، مناديًا.. مبددًا صمت الزقاق.. تحت ذات البيت، توقف بسلته.. أسدلها على الرصيف المكتتر. انتظر صوتها اللاذع، الممطوط.. يأتيه من الداخل: "انتظر.. قليلًا"

ترقب طلتها، اندفاع صدرها الممتلئ نحو جدار الشرفة، يلازمها قطها السمين. يتربع على حافة الجدار.. تتخلل أصابعها فروته الوثيرة،

ومن يدها الأخرى تهبط سلتها (الخوص). هيأ نفسه لمماطلتها.. جهّز كميتها المعتادة من السمك.. احتجز منها قليلا.. رتب كلماته المعهودة.

سيفرغ في سلتها ما جهز. لن تقنع به. سيتعلل بغلو الأسعار.. سيظل يصعد برأسه.. ينزل بها، مرارا؛ حتى تتمكن عيناه من غزو ما بين نهديها، ولو للحظة.. سيعطيها ما تطلب، ويزيد.. ستمنحه فوق الثمن بعض الضحكات.

طال انتظاره؛ فارتفع بعينيه.. وجد ذات القط وحيدًا.. ضامرًا.. ينبطح على ذات الجدار.. يتشمم ــ في لوعة ــ رائحة السمك الفائحة من السلة.

سبابة

تراجعت يمناه – المختبئة في جيب جلبابه – أومأ محركًا رأسه في اتجاه الشارع الواسع.. لم يفلح (صبيه) في تحديد المكان.

انتصب واقفًا، مكورًا قبضته المختبئة. تصدّر بطوله الفارع باب محله. جذب، بيسراه، الصبي من ياقة قميصه، مادًّا رقبته بانحناءة نحو صدره.. مشيرا – برأسه وعينيه – في نفس الاتجاه.

حملق الصبي في اللاشئ مغمغمًا...

ازدادت الأصابع التصاقًا بالكف. انكمشت ذراعه اليمنى إلى جنبه. قبضت يسراه على ياقة القميص بشدة. سحبه معه إلى خارج المحل متجهًا ببعض خطوات...

مع اندفاع جسم الصبي – في قبضته – ومقاومته المضغوطة، اهتز جسمه.. تراخت الذراع اليمنى.

بلا وعي.. انسلت يمناه من جيبه.. انفلتت أصابعها الواحد تلو الآخر – من أسر قبضتها – تنقصها (سبابة).. انضغط رأسه أكثر إلى صدره.. امتدت ذراعه – مرتعشة – لتلاصق رأسه، وتشغل يده – مفرودة ما بها من أصابع – الحيز أمام عيني الصبي مصوبة نحو المكان.

بصيرة

على ناصية شارع السوق.. لفظته الحافلة.. تخلل أنفه نسيم البحر.. راحت عصاه تتحسس خطاها في لهفة.. تطوح رأسه فوق رقبته يمينًا وشمالًا، كأنما تصغي أذناه إلى صوت ما.

إلى كتف أول مار استند.. طلب منه اصطحابه إلى أحد الأزقة المتقاطعة مع الشارع.. رفع عصاه عن الأرض.. ضمّها تحت إبطه.. شد رأسه ورقبته؛ فاستقاما مرتفعين إلى الأمام.. التحم ودليله بزحام السوق.

حين اجتازا أول تقاطع.. فاجأته رائحة الفسيخ المملح.. ابتلع ريقه الجاف، ومضى متمتما: "يا مسهل...

عند التقاطع الثاني.. انفجر صوت بائع الطماطم الأجش، مخترقا صخب الشارع المعتاد. تحسس عصاه.. همس ضاحكا:

– لن تنجو من جنونك حتى تتخلى عن بيع هذه المجنونة.

من ناصية التقاطع الثالث.. هجمت عليه روائح الفاكهة مجتمعة. رفع ساعديه إلى رأسه. قلوظ عمامته. ربّت على كتف دليله. دعا له. علا صوته متهللا: "ها.. قد وصلنا."

ومضى.. تتحسس عصاه خطاها في ثبات إلى داخل الزقاق.

نداء جماعي

في صمت يحوي ضجر الحر الخانق، يطرحون سجاجيدهم (المبرومة) من على أكتافهم الملبدة بالعرق.. تلتحم السجاجيد بتراب الشارع.. يتوالى فردها: الأكبر، فالأصغر، فالمشايات والدواسات على الأجناب.. تتراص أطقم الفرش المغلفة عليها.. ينتشرون حولها. يحوم كبيرهم حول المنظومة متفحصًا، متممًا.. يرتكن بيمناه إلى جانب الحائط. تستقر يسراه إلى جانب خصره. تتابع عيناه المتطلعتان أجواء الشارع.

يبدأون في نداء جماعي.. يرن.. تتساقط من كلماته الحروف متسارعة.. تلحق منها الآذان ما تبقى منغمًا. من الشبابيك الواطئة تتطلع رؤوس حاسرة ، ومستترة . من الشرفات المطلة منها أرتال الغسيل المنشور، والمفروشات المتهيئة لهواء يتجدد.. تتدافع الأبدان (الرخوة).. ترتكن إلى جدران تتدلى منها أغطية الأرض المتهالكة منها، والمتماسكة.

تتفحص أعين.. تمتد سبابات.. تتداخل رنات الأصوات المتباينة.

على هوامش الأسئلة.. تثار أحاديث جانبية.. مجادلات...

من بين صمت متفرج، وانسحاب بعد اطلاع.. تطفو مفاوضات مجهدة للشراء.

....

....

يبدأون في (برم) ما تبقى من سجاجيدهم.. تلتحم بأكتافهم. يتأبطون الأطقم.. المشايات والدواسات.. يطبقون عليها.. يعاودون الانتقال في صمت.

الكرة الزجاجية

وسط كتل الأبدان المنحشرة بالحافلة.. تزج به الكرة الزجاجية الشفافة، الساكنة لما بين صدغه ورقبته من جهة، وذراعه المحوطة عليها من جهة. تتمايل مع تمايل ذراعه.. تسكنها لفافات الحلوى ـــ بيضاء وعسلية اللون ـــ متلاصقة، تعلو حتى الفتحة الدائرية المشطوفة للكرة.. تبرز منها متراصة. يلتقط أنفاسه. ينطلق صوته الرخيم:

"عسل أبيض.. وحليييب"

بطوله الفارع، ومن خلف نظارته الطبية الممسوحة بعناية.. يتخطى بعينيه الصفوف المتراصة على الجانبين، ورؤوس المتزاحمين بالوسط المتماوج.. المتأرجح مع تأرجح الحافلة.

محاذرا أن تنزلق منه الكرة، وبجانبه الرشيق.. تنفلت قدماه بخفة. يبلغ قرص منتصف الحافلة المفصلي. تواصل عقيرته ناعمة ممطوطة.

"جوز الهند.. وزبيييب"

يطيب النغم المنفلت من زحام متبلد. تنفلت البسمات من وجوه ضجرة متأففة.. تتململ يده على الكرة.. ثم تثبت. ينطلق، قيد خطواته، في

زحام نصف الحافلة الأمامي. يرفع يده الطليقة، يمسح بها العرق عن جبهته.. يخفضها.. يخرج بها، من حواشي سترته وجيوبه المنتفخة لفافة صغيرة وأخرى كبيرة. يتناقلهما بين أصابع يده بخفة. يرفعها. يكمل:

"صغير وكبير.. عاللسان بيدوب"

ترمقه الأعين ملبية. تظل يده الطليقة تدخل في حواشي سترته وجيوبه المنتفخة، وتخرج، بينما الأخرى قابضة على الكرة.

قبل أن ترسو الحافلة بمحطتها التالية، يتخطى الأبدان عائدا.. يكرر مقاطع ندائه.. يؤمّن على كرته.. ثم يتحسس أسفل ظهره، المتسرب إليه بعض الألم.

يهبط. تهبط كرته من على كتفه آمنة. يعاود التقاط أنفاسه، تجفيف عرقه. يتأهب للالتحام بكتل أخرى، بحافلة أخرى قادمة.

متتالية

(1)
عقاب

في مواجهة (السبورة).. استغرقت البدينة في شرح الدرس.. تسللت يد (الولد) لتداعب جديلة (البنت). أغرقت البنت في ضحكة غير صبيانية مكتومة. عبثت فيهما عيون الصبية متضاحكة.

التصقت كأس – من ورق البسكويت المفضض – بالفضاء أعلى إطار (السبورة). لم تدر البدينة.

مرق صاروخ ورقي عابرا النافذة إلى الخارج. انتبهت على آخر يصطدم بساقها الغليظة. تضرج وجهها بالدم. تطاير الشرر من عينيها. ألقت بإصبع الطباشير على الأرض.

خرجت كلمة "قيام" من تحت أضراسها مضغوطة. صرخت:

- من منكم الذي....؟
- ....
- انطقوا يا أوغاد.
- ....
- إن لم يتقدم الذي فعلها فسوف..
- ....
- حسنا.. فلتظلوا واقفين هكذا، وليخرج كل منكم ورقة منفصلة.

استدارت إلى (السبورة) مسحت الدرس.. كتبت بخط مضطرب: "امتحان شهر أكتوبر"

(2)
مناقشة حرة

دق جرس ما بين الحصص.. هرولت البدينة، يتضرج وجهها باللون الأحمر.. تغادر الفصل، مخلفة وراءها ضحكات صارخة. حين أهلت النحيفة بوجهها الصارم، واصطدمت بالبدينة على الباب.. انتزع التلاميذ من مقاعدهم، يبتلعون آثار الضحكات المغموسة بأفكار شيطانية. ارتسمت على وجه النحيفة ابتسامة صفراء. توسطت الفضاء بين مقدمة المناضد والسبورة. ثبتت يديها في جانبي خصرها. جاست بنظراتها بين الصفوف.

راحت تذرع الحجرة ذهابا وجيئة.. تسمع تكات حذائها مدبب الكعب على الأرض، وهي تقطع الصمت الرابض. ثم توقفت.

من بين لفات الصمت، خرج صوتها ناعما زاحفا:

- يمكنكم إلقاء التحية.

استدارت، ووجهها للنافذة.

- ثم عليكم بالجلوس.

ترددت نظرتها بين السبورة، وصفوف التلاميذ، وعيونهم المترقبة.. رفعت عينيها فوق مستوى الرؤوس قائلة:

- درسنا اليوم.. بلا أقلام، ولا طباشير..!؟

تناقلوا نظراتهم فيما بينهم خلسة. قطعتها:

- درسنا اليوم.. مناقشة...

سكتت ثم أردفت: .... حرة.

(3)

اقتحام

في الفناء.. أمسك الولد بطرفي الحبل.. لف على كل من كفيه منه عدة لفات حتى تمكن منه. أرخاه على الأرض. وطأ منتصفه بقدميه. رفع ذراعيه به، موسعًا بينهما بمقدار محيط صدره، ثم بدأ النط. تارة يبدأ بيمناه، تارة يبدأ بيسراه، تارة ينط بهما معا، تارة يضرب بالحبل الهواء، ثم يلتقط أنفاسه، ثم يعاود. لما استغرقه النط.. تململ منه رفاقه المتحلقون به، حتى صاح أحدهم:

- واقع ..

على صوت الصياح، التفتت البنت.. تملأ الابتسامة وجهها، وحبيبات العرق جبهتها.. تتمركز الكرة تحت قدمها..

ارتدت بناظريها إلى أمامها؛ لتصوب الكرة نحو المرمى المفتوح.

(**4**)

هدايا

قبل حلول حصته التالية.. تأبط الحقيبة الجلدية الفاخرة (هدية مي).. يضمنها كراسة التحضير مزركشة الغلاف البلاستيكي السميك (هدية رشا).. يلاصقها طاقم الأقلام المذهبة (هدية عبير)، علبة زجاجة العطر الثمينة (هدية منار).. يحتل باقي فراغ الحقيبة ملازم المذكرات، المحظور تداولها بالمدرسة.. يتربع فوقها باكو بسكويت الشاي ــ الوحيد ــ ذو الورق المفضض.

لدى مروره لولوج مكتب المديرة الحسناء.. تتطلع إليه أعين الزملاء نصف باسمة.. نصف متخابثة.. ترمق الحقيبة والخطوات المنتشيةــ على غير العادة في دهشة وتعجب. يرمقهم من خلف نظارته المقعرة المغبشة. يمط نحوهم وجهه، يشد معه ذقنه غير مبال.

على باب المكتب.. يستأذن محييًا في أدب جم. يقتعد أول كرسي يقابله في مواجهتها. يخرج من حافظته البالية بطاقة شحن الهاتف المحمول (هدية بسنت). يطلب – باستكانة – من السيدة مساعدته في إدراج الأربعة عشر رقما السرية لبطاقة الشحن بهاتفه؛ لتستولي الدهشة على ملامح السيدة.

حين هم بإخراج الهاتف من جيب سترته المتواضعة، وقعت الحقيبة على الأرض منفرجة.

مع تبعثر المحتويات، تشتت نظراته المرتعدة بين الأرض، ووجه السيدة التي فغرت فاها بشدة.

(كتابات معاصرة – لبنان)
طبعة أولى (2004)

دراسة تحليلية

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة
عن مجموعة "على حافة الحلم"

مما لاشك فيه أن في هذه المجموعة عناصر جديدة للأقصوصة الحديثة من حيث البناء الفني والمضمون واللغة، ولكن بنسب متفاوتة بحيث تبقى للوسائل التقليدية فرصة الوجود. إذن فهي مراوحة بين الوسائل الحديثة والتقليدية.

في أقصوصة "رحيل" لا نجد حدثًا، ولكن خواطر ومشاعر وأفكار تتدفق من لا وعي الكاتب حينا ومن وعيه حينا آخر فهو يستخدم ما نسميه في القصة الحديثة "تيار الوعي" يمتزج الواقع فيها بالحلم، والميل الغيبي المتمثل في قراءة الفنجان.. يطلب (الشخصية المحورية) من قارئة الفنجان أن تقرأ له الفنجان.. وأيضا يمتزج هذا الواقع الغيبي مع هذا الواقع الجاف القاطع.. الرحيل في رأيي رمز لعدمية الإنسان مع ما يمكن أن يشكله في واقعه وما يحمله من آفاق يحلم بها فهو يقول: "رغم ما سيحققه لي ذلك الرحيل من أحلام"

والإنسان في حياته موزع بين نهايات ولهذا تقول الشخصية: "محطتنا هذه نقطة ما بين رحيل ورحيل".

ويقترن الرحيل بالفراق ولكن المحبوبة تتمنى أن يبقى يقول: "وهي لا تدرى ما أبغيه من وراء الرحيل". وفي لحظات يرى أن

الرحيل قرار إعدام. إذن الرحيل أخذ معان مختلفة: في الحلم والأمل، قرار إعدام، وهو محطة للراحة في مواضع مختلفة.

يلاحظ في هذه الأقصوصة شاعرية التعبير منذ بداية الأقصوصة من حيث الإيقاع. يقول:"أتأمل فنجاني هذا.. والحب في قلبي يتدفق" لو أن الكاتب جعلها: "والحب بقلبي يتدفق" لصارت موزونة على المتدارك.

ونجده يكاد يلتزم هذا الإيقاع في بقية الأقصوصة: "قالت لي هامسة سأراك.. لم أرها حتى الآن".

اللغة الشاعرية في الأقصوصة من العناصر الجديدة التي تحدث عنها التجريبيون في القصة الحديثة، ولا شك أن الكاتب لم يتعمد هذا على الإطلاق، ولكن لا وعيه وتجربته رغم قصر عمرها هدته إلى هذا الشكل الشاعري في التعبير من حيث تكثيف الدلالة في جملة قصيرة أو كلمات قليلة. لكنها تعطي دلالات واسعة للغاية وهذا من شأن الشعر.

يقول: "لم تعودنا هذا المكان.. وهذه اللقيا.. ولماذا عند كل رحيل.. ولماذا الفراق؟" ويقول في موضع أخر "بلدتنا واحدة.. قلوبنا مجتمعة.. عقل كل منا في اتجاه" كلمات قليلة لكن فيها دلالات واسعة تجعل القاريء يسرح بخياله وأفكاره فيما وراء الكلمات ليستطيع أن يستكمل بناء الأقصوصة والكلام الذي يدور حولها.

ثمة شيء ثالث في شاعرية التعبير في الأقصوصة وهو "الصور المجازية" (الحب في قلبي يتدفق – عناق الأيام – قطرات الماء تتساقط وتترقرق في جدولنا الصغير – خطوطه تتقاطع وتتشابك تتوالى

كنسيج ليس لأوله آخر..) إلى غير ذلك من هذه العبارات المشحونة بالصور المجازية الجميلة التي لا نجدها تكرارا أو نمطية في التعبير من تراث قديم أو من قصص أخرى إنما هي جزء من نسيج التجربة.

وإذا انتقلنا إلى الأقصوصة الثانية، وهي (عناصر الصورة) وجدنا البناء الفني هنا مختلفا فالحوار سواء كان مونولوجا داخليا ـــــ كما في السابقة ـــــ أم مباشرا يكاد يختفي. هنا لا يعتمد على الحوار، بل تتحدث الشخصية حديثا مباشرا، ولكنه ليس سرديا، بل في صورة خواطر تتناثر لتتجمع فيما يسميه الكاتب "عناصر الصورة"، ويتراوح بين الماضي والحاضر، ويصور لحظة شعورية قاسية حين تتدخل التقاليد لتضع حاجزا بين الفتية الصغار والفتيات الذين ألفت الطفولة بعبثها وبراءتها بينهم وحان إعداد كل منهم لفترة شباب. وتبدو في الصورة فتاة الطفولة وقد أصابها المرض، ومسها الهزال فأضافت إلى مشاعر فتاها قتامة وزيادة في الإحساس بالوحدة. وكلما زادت مساحة الحزن زادت أحاسيس الحب في قلبيهما.. يقول: "تفرط في زرع الحزن، ولا تعلم أنها تفرط في غرس الحب".

عناصر الصورة التي يرسمها تبدو مشرقة حينا وتبدو مضببة حينا آخر، والقدر للحبيبين بالمرصاد لكسر خط التواصل. وتبقى للكاتب بعض خصائصه الفنية التي أشرنا إليها في الأقصوصة الأولى من حيث شاعرية اللغة وتصويرها المجازى: "أعود لنفسي أجدها خاوية" – "أطلال الذكرى لا تريد الانتظار، وتشعل في القلب وحشة تداهم الوجدان" – "يصير المكان كهفا لا يعرف الدفء".

وإذا انتقلنا إلى أقصوصة (الضوء الأحمر) هنا يبتعد الكاتب عن ذات الشخصية قليلا ليراها من خلال منظور الخلل الاجتماعي؛ فالفتاة التي ترتدي بنطلونا وقميصا من الجينز تفوز بمنصب سكرتيرة. وقد وضع الكاتب هذه الرؤية ضمن إطار وصفي عام يبتعد تماما عن الخطابية أو المباشرة أو محاولة تحليل ما اعتور مجتمعنا من تغيير القيم. ولا شك أن تحليل الشخصية في إحدى بدوالها كان المحور الذي دار حوله العمل، ويغلب على هذه الأقصوصة طابع السرد والوصف، وتختفي اللغة الشاعرية المكثفة الدلالات.

وفي أقصوصة (صرخات مكتومة) يرتد الكاتب إلى الذاتية المفردة للشخصية، ويستبطن مشاعرها في تجربة حب مرت عليها سنوات، ولم تبق منها إلا ذكريات تعيش في وجدان صاحبها ما لبث أن انتعشت حين التقى بفاتنته، ولكن صرخاته – التي ود أن تسمعها – ماتت في داخله؛ إذ ألقى الزمن حجابًا كثيفًا بينهما لم يعد بالإمكان إزالته.

وقد استخدم الكاتب أسلوب الحكاية في الوصف التحليلي للشخصية والمكان، ونجده يستخدم الأسلوب المتواثب للعبارة بإسقاط حروف العطف.. يقول: "اتئدت خطواته.. اضطربت.. اتسعت.. زادت عصبية.. حادث إحدى.. شملتها عصبية.. اصطدمت بحجر. ارتدت".

وفي أقصوصة (الصورة والألوان) يلجأ الكاتب إلى استخدام أسلوب السيناريو حيث نجد مقاطع ذات أرقام متوالية تضع الحدث منذ بدأ الحب يسري في كيان الرسام فامتزجت عنده خضرة اللون بخضرة

عيني المحبوبة، وتآلف اللون الأحمر في فرشاته مع حمرة شفتي المحبوبة، وسارت الألوان مع قصة الحب في مشاعر هذا الإنسان حتى صارت الألوان رمزا. ولم تلبث الصفرة أن تغلبت معلنة جدب المشاعر، وانقطاع خضرة الحب وعنفوانه. حقيقة هذه الأقصوصة من الأقاصيص الجميلة التي تناغم فيها اللون مع الحدث في انسجام تام، وهذا يتفق مع مهنة الشخصية كرسام.

ونأتي إلى أقصوصة (مشاعر جانبية) فنرى الكاتب يعود إلى السرد الوصفي لعلاقة حب، ويستخدم أسلوبا يتألف من جمل قصيرة شديدة التركيز. يقول "اهتزت الحافلة.. التصقت به.. احتواها بعينيه.. أجفلت بابتسامة باهتة". لعلنا نلاحظ أمرين في مثل هذا الأسلوب:

1) النقاط الموضوعة بين جملة قصيرة وأخرى تقوم بدور مهم في إجمال المعنى وتصوره. هذا أيضا من الوسائل الحديثة في القصة بل في الشعر أيضا. تقوم النقاط أو علامات الاستفهام بدور مهم في النص؛ فهي تغني عن كلام كثير أي لها دلالات شأنها شأن الكلمات، وفي إيجاد رابطة بين الجمل بعضها والبعض الآخر.

2) استخدام الكاتب للجمل الفعلية المتوالية: (اهتزت – التصقت – احتواها – أجفلت) للدلالة على حركة ماضية مع كونها في صلب الحاضر. وهو عمل مهم جدا في بنية التعبير الأدبي. ثم يقطع الكاتب هذا التوالي بجملة تبدأ بجار ومجرور: "في حركة المارين وراءها أحسست بامتهان" كان من الممكن أن يأتي الكاتب بالفعل في أول الجملة فيقول

"أحست بامتهان في حركة.." لكنه أخر الفعل وجاء بالجار والمجرور (شبه الجملة) وكسر نمطية التعبير، وهو عنصر مهم جدا لأنها مسألة تداخل أزمان بل ومسألة تعبير؛ فشبه الجملة تغير الأسلوب الحركي التعبيري، وتعطي انتباها قويا للقاريء. ولهذا التغيير معنى خاص ودلالة خاصة نبحث عنها دائما وراء تعبير الكاتب أو الفنان.

كذلك نراه يتجنب نمطية السرد الوصفي في الأقصوصة حيث يعكس رد فعل الشخصية تجاه المعركة التي نشبت. هنا في هذا اللقاء (هي) تفكر في أشياء أنه تركها وأهملها فيما سبق والآن (هو) يريد أن يخطب ودها مرة أخرى. حدثت المعركة، وهنا نرى العاشق القديم ينفعل ويتدخل لينتصر للصبي الصغير.

هنا تحدث موازاة كاملة بين حركة الماضي الذي يريد أن يتواصل مع الحاضر، وعودة الحب. وبين معركة الصبي والفتى. فيها تواز رائع جدا.

وقد صور مشاعر الفتاة، وموقفها من الشاب حين همست في خاطرها: "لن تستطيع التخلص من تمردك.."إذن هو تمرد عليها وتركها، ويتضح هنا سبب الفراق – الذي لم يذكره الكاتب في سياق العمل – بإسقاط هذه العبارة عليه، والمعركة بين الفتى والصبي دون اللجوء إلى الوصف والسرد. وبذلك تمضى الأقصوصة في خطين متوازيين: الأول: المعركة الحامية بين الفتى والصبي وهي علنية ظاهرة. والثاني المعركة بين الحبيبين وهي خفية باطنة.

وفي أقصوصة (همسات.. وظلال) نجد تحليلا لمشاعر دفينة لفتاة عاشقة يمتزج لديها الحلم بالحقيقة، وتشتعل فيها الرغبة لتصور لها ما تتمناه. وقد نسج الكاتب تحليله النفسي الدقيق (كما استخدام في أقصوصة سابقة موضوع الرسم والألوان وفرشاة الرسام) هنا استخدام الطبيعة وألوان الأزهار وما إلى ذلك في عملية تناغم جميلة حقيقة يبتعد بها عن السردية والنمطية في التعبير.

***

إن هذه المجموعة تبشر بقاص ذي موهبة حقيقية، تعيش في وجدانه القصة القصيرة بأشكالها التعبيرية المختلفة، ولديه رؤية واضحة في عالمه تتيح له انتقاء اللحظات الشعورية والمواقف الإنسانية التي يمكن التعبير عنها شعوريا بالكلمات التي تشكل أقاصيص صادقة في فنها قادرة على الإيحاء والتأثير.

سبتمبر 1988

تشكيل الصورة القصصية في "على حافة الحلم"

أحمد فضل شبلول

عالم الفن التشكيلي هو أوَّل ما يلفت الانتباه في هذه المجموعة القصصية الأولى للقاص محمد عطية محمود التي اختار لها عنوان "على حافة الحلم"، وقسمها إلى ثلاثة أجزاء" بداية" و"توغل"،

و"لمحات"، حتى وإن كان بعض قصصه لا ينتمي إلى عالم الفن التشكيلي فسنجد أنه يجيد رسم الصورة بالكلمات، وكأننا أمام منظر طبيعي، لا يخلو من شاعرية.

ولنتأمل مثلا قوله في قصة "عناصر الصورة": "أعود إلى موطننا القديم بين شجرةٍ – نُقِشَ عليها قلب يخترقه سهم أوَّله اسمك و آخره اسمي – وحائطٍ دوَّننا عليه تاريخ كل يوم تلاقينا فيه ."

ما أسهل أن تتحوَّل هذه الكلمات السابقة إلى لوحة أو منظر طبيعي، مفرداته: الشجرة، القلب المنقوش عليها، والسهم الذي يخترق القلب، والحائط المدوَّن عليه زمان أو تاريخ التلاقي. بل إننا بالفعل قد نكون شاهدنا مثل هذه اللوحة لدى بعض الفنانين التشكيليين الذين ينتمون إلى المدرسة الطبيعية أو التأثيرية .

إذن العبارة القصصية عند محمد عطية تنحو في كثير من الأحيان ــ إلى الرسم بالكلمة، أو التشكيل بالكلمة، وهي بذلك تتجه إلى الخارج، أكثر من اتجاهها إلى الداخل وبذا يتحول الانفعال من الداخل إلى الخارج، فتتضح معالم الصورة التي يرسمها أكثر مما لو حدث العكس، بمعنى إن اتجه من الخارج إلى الداخل .

إن العناصر الخارجية التي يعتمد عليها القاص كثيرة، وهو يلجأ إليها لتكون تعبيرا عما يحدث بالداخل وخاصة في لحظات الحلم فالخوف المسكون بالداخل يتحول إلى رعشة أطراف وخفقان شديد، يُرى بالعين، فيصبح من عناصر الصورة الخارجية، ولكنها على أية حال صورة خارجية تعبر عن حالة نفسية داخلية في هذا المقام، أكثر منها صورة من صور الطبيعة الخارجية، كالتي شاهدناها في الشجرة والسهم الذي يخترق القلب المنقوش على الشجرة .

في قصة أخرى عنوانها "الصورة والألوان"، نجد عالم الفن التشكيلي ومفرداته صراحة : الفرشاة والألوان، وسطح اللوحة، وخيال الفنان الحالم بفتاته ذات العينين الخضراوين التي يحاول رسمها فتوشك الألوان على النفاد .

أيضا في قصة "همسات وظلال" نجد حجرة الرسم، والأنامل التي تمسك الفرشاة، واللوحة البيضاء، والألوان والظلال، وملامح الوجوه التي خارج اللوحة، ويريد الفنان أن ينقلها إلى داخل اللوحة ليكتشف

حقيقتها وهو يقوم برسمها. ولكن الخارج يشده (الشجيرة التي تنبثق منها زهور البنفسج، على سبيل المثال) و(انحدار الشمس نحو المغيب) هذه عناصر خارجية طبيعية، ولكنها تساعد على تشكيل اللوحة، وعلى تخفيف حدة التوتر التي يعانيها الفنان، لأنه بنقلها إلى اللوحة يكون قد أفرغ الشحنة التي بداخله، فينتهي التوتر الفني الذي يعيشه، تماما مثلما الشاعر الذي يفرغ شحنات مشاعره وتوتره في صورة كلمات مموسقة أو موقعة على الورقة.

يقول القاص: "في حجرة الرسم.. جلستْ بالقرب منه، ترقب حركات أنامله عبر اللوحة البيضاء، وهو يرسم الخطوط الرئيسية لوجه غامض. تعلقت عيناها بقسمات الوجه الوليد .. غابت في تنهيدة تخطت حدود اللوحة والحجرة كلها إلى أفق يتباعد بها حيث لا شيء إلا هي وقسمات وجهه، وروح منها تتنفس عبر مساحة الوجه الوليد ."

في هذه العبارة التشكيلية القصيرة السابقة نلاحظ أربعة فضاءات: فضاء اللوحة البيضاء، وفضاء الوجه الوليد، وفضاء الفنان وهو يرسم، وفضاء الحبيبة. وهي فضاءات يمكن معاينتها بالعين المجردة، ونجد في مقابلها فضاءات نفسية أخرى، مثل فضاء التنهيدة التي تخطت حدود اللوحة والحجرة، و التنهيدة تعبر عن فضاء نفسي شديد الخصوصية وفضاء الروح التي تتنفس عبر الوجه الوليد.. وهنا يتشابك الفضاءان الداخل (المتمثل في الروح) والخارجي (المتمثل في الوجه الوليد عبر تشكيل اللوحة) ليشهدا براعة القاص في نسج خيوط قصته "همسات

وظلال" ما بين الداخلي والخارجي، بل أن عنوان القصة نفسه يدل على هذا فالهمسات تعبر عن فضاء داخلي يتجه إلى الخارج، أما الظلال فهي فضاء خارجي يشير إلى الداخل أو إلى النفس المتشظية المنغمسة في رمادية تنحو نحو السواد، لذا نرى أن ظلا من هذه الظلال بدا مبتورا أمام الناس، فهو يحمل فَناءه بداخله، بينما انطبق ظل على ظل آخر، بعيدا عن الهمسات، وكأن الهمسات أصبحت الطرف الآخر في المعادلة الفنية والنفسية معًا، أو نقيض، الظلال. وبلغة الألوان، كأن الهمسات هي الأبيض والظلال هي الأسود أو العكس.

هنا تلعب الألوان دورها في القصة: اللون العسلي الغامق (لون العينين)، واللون الأزرق، واللون الأحمر (ارتعشت أناملها، وهي ممسكةٌ بوردة حمراء) بينما تورد خداها بحُمرة الخجل، واللون الأبيض الذي تمثل في الورود البيضاء التي حملتها الحبيبة للفنان.

هنا نجد صراعًا بين الألوان، وخاصة الأحمر والأبيض، وهو صراع له دلالة نفسية داخل القصة، تماما مثلما لاحظنا الصراع بين الهمسات والظلال، والذي انتهى إلى انتصار نفسي للظلال على همسات الحبيبة حيث (استحالت المعاني بداخل الحبيبة إلى ظلال كئيبة تنحدر، تتوثب.. تريد الانطلاق)

وبعامة فإن القصة عند محمد عطية في هذه المجموعة القصصية "على حافة الحلم" تتسم بقصر حجمها خاصة في الجزء الأخير "لمحات"

وقصصه الثلاث: عقاب، وتشبث، والمقعد، فضلا عن التكثيف في اللغة والسرد، أما عن الشخصيات فقد لاحظنا قلتها، وهي في معظم الأحوال لا تزيد على اثنين، ونتج عن ذلك قلة الحوار في القصة، وقد تعتمد القصة الواحدة عنده على ضمير واحد (إما متكلم أو غائب) وجمل قصيرة سريعة، لكنها دالة وموحية وشاعرية في كثير من الأحيان، وقد تحدث أستاذنا الراحل د. محمد مصطفى هدارة عن شاعرية التعبير في دراسته التحليلية الملحقة بالمجموعة، وأراني أتفق معه تماما، لذا لن أكرر ما قاله أستاذنا الراحل .

***

في مجموعة "توغل" والتي تحتوي على تسع قصص قصيرة، نجد ذلك الصبي الذي يسعى لاكتشاف العالم من حوله، مستعينا بحواسه التي بدأت تنضج وتتفتح (خلال فترة المراهقة). وكأن الفنان التشكيلي الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول، ارتد إلى صباه، وبدأ يمارس مراهقته، ونلاحظ ذلك في قصة "العجز" حيث يتشبث شخص القصة بوسادته الوثيرة، فترتخي أعضاؤه، ويتسلل إلى بوتقته الصغيرة المختبئة بين ضلوعه، فيخرجها، ويلهو بها، ويسرح في الخيال، وهنا تعود عناصر التشكيل مرة أخرى إلى فضاء القصة القصيرة، حيث يبدأ القاص في رسم أو تشكيل عناصر الصورة الأنثوية التي يحاول اجتذابها إلى مخيلته فتفر من يديه وتتأبَّى على خياله، فيحاول مرة أخرى، فتلوح له خصلة من شعرها، ثم تلوح اليد المتشابكة، وهنيهة بعد هنيهة تتحول الصحراء والطرق

الإسفلتية إلى طريق أخضر ممتد. مما يشي بنجاح الصبي أو المراهق الملتذ في استكمال عناصر الصورة الأنثوية التي يحلم بها، ولكن نجاحه يعقبه فشل آخر، حيث تحاول الصورة الهروب بعد أن نجح في استكمال عناصرها، وهكذا يتردد الصبي بين نجاح وفشل، إلى أن يفقد سيطرته فتخضع له أنثاه في رمزية ينجح القاص في استنطاقها، فيبعد شبح الجنس الفج عن أجواء كلماته وصوره، ولكن يفاجئه صاحب الصوت الأجش (ولعله رمز للأب، أو السلطة الأبوية) الذي ينهره ويقول له: لم تعد صغيرا .. كف.

وكأن صاحب الصوت الأجش، ينهر هذا الفتى المراهق عن أن يعيش مراهقته (وهي مرحلة نفسية واجتماعية وجنسية، من أصعب وأهم المراحل السنية التي يمر بها أي فتي وفتاة نجح القاص في جمل سريعة، ومكثفة أن يجسدها عبر هذه القصة.

هنا يبرز الصراع النفسي بين الابن المراهق، والأب صاحب السلطة، والذي لم يعط هذا السن أهميته، على الرغم من أنه ـــ بالتأكيد ـــ مر بحالات المراهقة نفسها التي يمر بها الابن.

بعد أن نهره الأب أو صاحب الصوت الأجش، يقدم لنا القاص وصفا نفسيا ذا دلالة قائلا: "تقصر قامتي حتى أصير قطعة من أسفل الركن القاصي الماثلة أعلاه صورة له بالأبيض والأسود.. تبتل ملابسي عرقا.. أحس بالحر والبرد يجتمعان.. تصطك أسناني .. يعلو خفقان

قلبي.. يزداد التوتر.. تند عني صرخة تزعج أعماقي المتناهية في الصغر". بينما هو ـــ أي الأب ـــ كما يصفه القاص: "تصدر منه عاصفة من الضحكات العالية الممزوجة بالسخرية والقسوة.. ثم يتلاشى شيئا فشيئا.

وكأن هذا الأب يمثل من ناحية أخرى، حالة الندم وتأنيب الذات أو الضمير، التي تعقب حالة الاستمناء التي يمر بها المراهق، الذي يشعر بنمو أجزائه ثانية، وتعود قامته إلى ما كانت عليه. ومن ثم ينشد فتاته مرة أخرى. إنه شعور بالتجدد.

ولكن يظل هذا الرمز السلطوي ماثلا أمامه، مرة أخرى، فيحتدم الصراع ثانية. ومن هنا يشعر شخص القصة أو الفتى المراهق بالعجز بين تلبية متطلبات المراهقة، واستدعاء فتاته على السرير الوثير، وبين إرضاء صاحب الصورة الفوتوغرافية الماثلة فوقه والذي دائما ما ينهره إذا هو حاول ونجح، والذي يطالبه دائما بالكف عن أفعال المراهقة.

في هذه القصة يستعين القاص مرة أخرى بعالم التشكيل المتمثل في الصورة الفوتوغرافية ذات اللونين الأبيض والأسود، وللأبيض والأسود في هذا المجال دلالة القِدم، أما الألوان المتمثلة في الأشعة الفضية، فضلا عن تطاير خصلة الشعر، ووجود الشجرة، والطريق الأخضر، فكلها دلالة على الحيوية والانطلاق والشباب، وهو صراع من نوع آخر داخل بنية قصة "العجز."

وتقودنا قصة "العجز" إلى قصة "الثوب" ونلاحظ العبارة التشكيلية في قول القاص" : في نعومة فائقة راحت الأنامل تتلمس الحبل الممتد لتشبك فيه أطراف الثوب". ثم تفعل الشمس فعلها في اختراق هذا الثوب، وتبخر ما علق به من ندى الفجر الرقيق، وفي الوقت نفسه في اختراق ذلك الجسد الأنثوي الذي شدَّ من نفسه، وتمطَّى في ثيابه الشفافة الفضفاضة، فيرتعد ما بين الصدر والجانب (أي القلب) مراهقة من نوع آخر يشكلها لنا القاص، إنها مراهقة الفتيات. إن فتاة القصة شعرت بأن هناك من يراقبها أو يرصدها، وهي تسعد بذلك، وإذا كان الأب في قصة "العجز" يحاول أن يثني ابنه عن ممارسة مراهقته، فإن احتراق صدر الثوب الذي كانت تكويه الفتاة كان هو ثمن ممارستها لمراهقتها وانفعالها بخيال العابر من وراء النافذة. وفي احتراق صدر الثوب شيء من الرمزية لما يعتمل من غليان وتأجج داخل صدر الفتاة نفسها.

وقد كان القاص موفقا في إنهاء القصة عند قوله "انتبهتْ على رائحة احتراق صدر الثوب"

في هذه القصة القصيرة نلاحظ سيطرة ضمير واحد، هو ضمير الغائب المؤنث، وانعدام الحوار، مع إجادة الوصف والتشكيل، مثل قول القاص: "استقر الثوب فوق المنضدة، ارتفعت درجة حرارة المكواة، انطفأ المؤشر، سحبتْ نفسا عميقا، سحبتْ معه نسمات الهواء خصلات من شعرها إلى الوراء، استقرت المكواة فوق الثوب، راحت يمناها تحركها في لا إرادية .. الخ."

أيضا نلاحظ الصورة المرسومة بدقة، وكأننا أمام لوحة تشكيلية من الممكن أن نسميها" فتاة المكواة، أو فتاة الثوب"

إن القاص لا يزال يمارس هوايته في تشكيل الصورة، فنقرأ على سبيل المثال السطر الأول من قصة "الحافظة" الذي يقول فيه: "مشمرا القميص عن ساعديه النحيلتين .. يتأبط لفافة ملابس عمله" كأننا نشاهد جزءا أو مقطعا من لوحة الفنان التشكيلي د. حامد عويس عن العمال أثناء خروجهم من المصنع. مع الفارق أنه في لوحة حامد عويس، نجد العامل صاحب الزند القوي والعضلات المفتولة، أما عامل القصة هنا عندما يشمر قميصه، نجد ساعدين نحيلتين، وهو الفارق بين عصرين مختلفين، فحامد عويس كان يرسم عمال الثورة أثناء خروجهم من مصانعهم وكلهم عزيمة وإصرار وتحدٍّ، أما عامل محمد عطية، فيعيش عصرا مختلفا، المصانع فيه مهددة بالبيع، إن لم يكن قد بيعت بالفعل لرجال الأعمال غير الوطنيين.

نحن في هذه القصة أمام مراهقة من نوع آخر، مراهقة اتخاذ قرار الشراء، أو تأجيله، ولعل الكثيرين منا قد عاشوا هذه المراهقة، عندما يكون في جيب أحدنا مبلغ محدد من المال ويريد أن يقتني أو يشتري شيئا، ويذهب لرؤيته في فاترينة العرض، ثم يفكر مرة أخرى، هل يشتريه أم لا؟ ثم يبتعد ليتحسس النقود التي في جيبه، ثم يقترب متفحصا ما يود أن يشتريه، إلى أن يلاحظ البائع ذلك الإقدام والإحجام، فيبادر هو بالكلام: أي خدمة؟ فنرتبك ونشكره ونبتعد لنفكر مرة أخرى .. الخ.

هذه المشاعر والأحاسيس أمام المحال التجارية، وفاترينات العرض في شارع سعد زغلول أو صفية زغلول، أو شارع النبي دانيال، أو السلطان حسين، على سبيل المثال، أجاد القاص تجسيدها من خلال قصة "الحافظة" وهي في رأيي تعبر عن مراهقة في التعامل مع قوانين السوق، وهي مراهقة من نوع خاص، فهذا العامل الشاب ذو الساعدين النحيلتين يحلم باقتناء حافظة نقود من أحد الدكاكين التي تبيع المصنوعات الجلدية، ولكنه في الوقت نفسه يظل يعبث في جيبه مداعبا ورقته النقدية التي تنعش جسده الضئيل بصوت احتكاكها المحبوب.

ثم يتدخل تيار الوعي في صياغة القصة، حيث تدور الحافظة بين يدي الشاب، وتتسلل لتحتل حيز الجيب الخلفي للسروال، وتستقر فيه، ولكن يفاجأ ــ ونفاجأ معه ــ بسؤال البائع: أي خدمة؟ فيُفيق العامل، والقارئ معا.

وقد أعطى القاص لعبارة تيار الوعي بنطا آخر من أبناط الحروف، لينبه القارئ بأن هناك سياقا فنيا أو لغويا مختلفا في هذا المقطع أو في هذه الجملة من القصة، ثم يعود إلى البنط العادي عندما تنتهي هذه المهمة الفنية أو اللغوية، وقد يعترض البعض على هذا التمييز بين تقنية معينة، وردت أثناء السرد أو الوصف أو السياق، والسبب الذي يرونه من وراء ذلك: اتهام القارئ بالغباء أو عدم الإدراك، بأن هناك تقنية ما تسللت في جزء ما إلى السياق القصصي.

ولكني في الحقيقة أحبِّذُ استخدام مثل هذه الإشارات (خاصة في ظل التنضيد على أجهزة الكمبيوتر التي تسمح بهذا التنوع الكبير لأبناط وأحجام الحروف المختلفة) التي تنبه القارئ وتجعله مشاركا ويقظا أثناء قراءته للعمل.

ولم تكن قصة "الحافظة" الوحيدة التي استخدم فيها القاص هذا التنوع للأبناط، ولكنه استخدمه في بعض القصص الأخرى مثل قصة "رحيل" في مجموعة "بداية"، و"الصورة والألوان"، و"همسات وظلال"، وغيرها.

نعود إلى قصة "الحافظة" وبعد دخول تيار الوعي، ثم انقطاعه على صوت البائع: أي خدمة؟ فيغادره العامل مسرعا، ويعود تيار الإحجام والإقدام على عملية الشراء مرة أخرى وتُبتر العبارات على لسان الفتى، بينه وبين نفسه، إلى أن يقرر العودة إلى المحل حاسما أمره بالشراء، وحينما يمد يده إلى جيب سرواله، لا يجد صوت احتكاك الورقة المالية الجديدة. لقد ضاعت الورقة المالية، أو سُرقت، أو .. يتركنا القاص لنخمن كيف فقد الفتى ورقته المالية التي علَّق عليها كثيرا من الآمال، بعد خروجه من العمل، والتي كان ينتظر الحصول عليها بفارغ الصبر. وكم كان القاص بارعا في رسم المشهد النفسي لهذا الفتى المراهق المحبط، فيقول: "تتزايد حبيبات العرق على جبينه، ينطفئ بريق نظرته، يسري داخله خواء، يسحب معه برودة لزجة، يغوص داخل نفسه .. يتراجع."

هنا أيضا نلاحظ حضور ضمير المذكر الغائب، وانعدام الحوار، فيما عدا الحوار المبتور على لسان البائع الذي تساءل: أي خدمة؟ ولم يكن هناك أي رد من الطرف الآخر، ولكن في الوقت نفسه تصاعد الحوار النفسي، فيما يشبه المونولوج الداخلي، وذلك أثناء لحظات الإقدام والإحجام عن عملية الشراء .

***

في قصة "الزهرة" نلاحظ ذلك التماهي بين الزهرة والحبيبة، فيخلع القاص صفات الحبيبة على الزهرة، ويخلع صفات الزهرة على الحبيبة، وكأن الزهرة هي المعادل الموضوعي للحبيبة في تلك القصة ولكنه عندما يتحدث عن الزهرة كزهرة فحسب، يُغيِّرُ من بنط الكتابة (كما حدث مع تيار الوعي في قصة الحافظة) ونحن إذا أردنا أن نقرأ السطور الخاصة بالزهرة، سنجدها على النحو التالي:

(اخضرَّ العود اليابس. نبتت الكأس في تحد. ازدهرت خضرتها الموسومة بخضرة عينيها .كادت تنخلع الساق من جذورها. أسرعتُ فاحتويتُ النبتَ بين يدي، ونقلته إلى مكان آمن من بين ثنايا الكأس بدت نقطة حمراء. تحسستُ الساق في رفق. مسحتُ الطلَّ متأملا. ازدهرتْ وريقات الزهرة الحمراء).

أما عندما يتحدث عن الحبيبة كحبيبة، فيقول على سبيل المثال: "ضممتُها إلى صدري في قوة انتزعتُ منها آهةً. استنامتْ إلى صدري، وغطى شعرُها الكثيفُ كتفي."..

أما عندما يقول: "استجابت على غير ميعاد، فطوقتني بذراعيها العاريتين اللتين غمرهما دفء غريب. رحت أستقي الرحيق من بين ثنايا الكأس الحمراء القانية تغمرني اللذة". فنلاحظ هذا التماهي الذي حدث بين الزهرة والحبيبة. ولعلنا لاحظنا أن ضمير المتكلم هو الذي تسيَّد هذه القصة، مع انعدام الحوار تماما. غير أن الملاحظة التي أودُّ أن أتحدث عنها في هذا السياق، هي الترقيم الذي أعطاه القاص لهذه القصة، وغيرها من القصص. وأنا أرى أن هذا الترقيم عديم الفائدة، فما معنى أن أعطي كل جملة أو كل عبارة ترقيما معينا بدءا من (1) وحتى (6) في هذه القصة ذات الثمانية والعشرين سطرا، على سبيل المثال، وهي قصة واحدة، وليس بها أي نقلات زمنية أو مكانية. إن وجود أكثر من بنط في القصة، يفيد في حدوث النقلات المعنية التي ربما تكون نفسية، ويُغني عن أي ترقيم من الممكن أن يعطيه القاص لقصته بدون أدنى مبرر فني. لذا أرجو أن يراجع القاص مسألة الترقيم وجدواها الفني في بعض قصصه .

***

وعموما فنحن أمام قاص سكندري جديد، يُعد مكسبا لحركة الإبداع القصصي المزدهرة في مصر، ومجموعته "على حافة الحلم" تبشر ـــ كما ذكر أستاذنا الناقد الراحل الدكتور محمد مصطفى هدارة ذات

يوم قبل طباعتها "بقاص ذي موهبة حقيقية تعيش في وجدانه القصة القصيرة، بأشكالها التعبيرية المختلفة، ولديه رؤية واضحة في عالمه، تُتيح له انتقاء اللحظات الشعورية والمواقف الإنسانية التي يمكن التعبير عنها شعوريا بالكلمات التي تشكل أقاصيص صادقة في فنها قادرة على الإيحاء والتأثير ."

وخز الأماني
وصوت القصة القصيرة المنفرد

دراسة: شوقي بدر يوسف

إن القصة القصيرة أقرب إلى الحالة التي يمثلها
قول باسكال "إن الصمت الأبدي لهذه الآماد
اللانهائية يرعبني"
فرانك أوكونور – "الصوت المنفرد"

القصة القصيرة هي الصوت المنفرد المتوحد في هواجسه وتعبيره مع الذات والعالم، وهي في كل مكان وزمان، تحتل مكانًا متميزًا من الفكر الإنساني، كما أنها تعتبر من الروافد المهمة لفن من الفنون ظل على مر الأزمان والسنين حديث الناس وشاغلهم الأول والأخير سواء في أمسياتهم أو في أحاديثهم اليومية أو في جلسات السمر وتزجية الوقت، فالحكاية والقصة هي إحدى سمات الإنسان أيا كان وفى أي مكان يحل فيه، هو دائما يحكي ويروي ويسرد ويثرثر، ودائما ما يكون الحكي والقص والسرد الحكائي عنده له متعة مزدوجة، له وللمتلقي على حد السواء، حيث يعيش الاثنان معا حالة من الوجد الخاص والتوحد المنفرد والمتفرد مع الحكاية بكل ما تحمل من رؤى وفكر ومتعة خاصة تحتل العقل والوجدان معا، وتترك في نفسيهما أبعادا وهواجس خاصة تثير الانفعال وتحرك الراكد من الكوامن والمخزون من الهموم والتأزمات

الخاصة. ولا شك أن فن القصة خاصة في مدينة مثل الإسكندرية يحظى دائما بظهور كتاب متميزين، هم بإبداعاتهم ونتاجهم دائما ما يتركون بصمة خاصة متميزة على هذا الفن، وأعتقد أن لعبقرية المكان والزمن السكندري الواقعي الذي له خصوصيته لهما تأثير كبير وعميق على الكتاب الذين ينشأون على هذه الأرض، لما ما في تاريخها وعبقها من إشراقات كاشفة، وعبقرية مؤثرة، وتميز يجعلها بحق هي عاصمة الفن والأدب، وأرض المكتبات والثقافات والفلسفات، ولا شك أننا نستطيع أن نقول الآن أنه من المؤكد أن الساحة الأدبية في مجال القصة القصيرة والرواية هنا في الإسكندرية قد بدأت تستقبل أصواتًا جديدة تفرض سردها وقلمها على خطوط هذه الساحة وأن تحقق على المستوى الشخصي والمستوى العام نجاحات متوالية من خلال أعمالها الإبداعية المنشورة في الدوريات، ومن خلال بعض المجموعات التي صدرت في هذا المجال، من هذه الأقلام التي حققت التميز والحضور الفعلي الكاتب محمد عطية محمود .

صدر لمحمد عطية محمود مجموعة قصصية على نفقته الخاصة، جاءت تحت عنوان "على حافة الحلم" وقد صدرت بمقدمة تحليلية للمرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة تبرز العديد من الجوانب الإنسانية والفنية في قصص الكاتب من خلال طرح بعض فضاءات التوتر والانفعال والترقب وطرح العديد من الهواجس المتناثرة في مضامينها، وأيضا طرح بعض الأسئلة التي تعتمد الذات الإنسانية في رؤاها بكل ما

تحمل من تأزمات ووقفات وممارسات من خلال نسق خاص قال عنه الدكتور هدارة في مقدمتها: "مما لاشك فيه أن في هذه المجموعة عناصر جديدة للأقصوصة الحديثة من حيث البناء الفني والمضمون واللغة . ولكن بنسب متفاوتة بحيث تبقى للوسائل التقليدية فرصة الوجود . إذن فهي مراوحة بين الوسائل الحديثة والتقليدية"

أما المجموعة الثانية التي نحن بصددها فهي مجموعة "وخز الأماني" التي جاءت هي الأخرى معبرة عن ذات الكاتب وعن عالمه الإبداعي الذي بدأ يتشكل وتظهر ملامحه وظلاله الخاصة من خلال هاتين المجموعتين اللتين تمثلان البواكير والبدايات الفنية له، وتعتبر مجموعة "وخز الأماني" امتدادا عضويا للمجموعة الأولى في نسقها وصيغتها وشكلها العام ولغتها وما تحويه من رؤى تعتمد الإنسان في توجهاتها وفى التعبير عن عالمه.

والقارئ لمجموعة "وخز الأماني" يجد أن الهاجس الذي يحكم ذات الشخصية الراوية في قصص المجموعة هو سرد الكاتب وقلمه ورؤيته الشخصية لطبيعة الأشياء، وحسبما يتشكل هذا الهاجس في وعيه ونفسه، وعبر مكوناته الثقافية والحياتية ينعكس ذلك على الهواجس التي تحيط بالشخصية، وتملأها بالعديد من الرؤى والأفكار والدلالات، كما نجد أن الكاتب أيضا يستخدم في نسيج قصص هذه المجموعة بعض التقنيات الحديثة في تشكيله لهذه النصوص مثل تداعي الخواطر والفلاش باك وأحيانا تكنيك تيار الوعي وهى تقنيات تتناسب مع الشكل الذي

وضعت فيه هذه المضامين التي تبدو وكأنها مختبئة وراء ركام الواقع وتحكمها في نفس الوقت محكات نفسية وواقعية تطال الحدث كما تطال الشخصيات في نفس الوقت، والكاتب هنا أيضا يحاول أن يبحث حوله عن هويته الآنية مع نفسه ومع الآخرين، ولا شك أن هذه الهوية الآنية هي التي تحدد علاقته بواقعه المحمل بأقنعة عديدة، ربما هو يستحضر لها من الماضي أشياء تتداعى لها خواطره، ربما هو يتوجه فيها إلى الهاجس الواقعي ليحدد معالمه، وإن كانت هذه الهواجس في بعض الأحيان يغلفها الغموض، وربما يبدو الحدث أحيانا في بعض اللقطات غير مبرر حكائيا بمعنى أن الحكاية لا تكتمل ويبتر سردها وهى على وشك ظهور حبكتها، بل وبعضها ينتهي نهاية غير متوقعة كما في قصة "وخز الأماني" على سبيل المثال. كما يحرك الحدث أحيانا كما قلنا في بعض قصص المجموعة هاجس سيكولوجي ينبع من التجربة الحسية وشواهدها المنقولة من عقل الراوي وأزماته الواقعية في هذه القصص، كما يتجسد جانب آخر مواز لذلك يستمد خطوطه وإطاره من البعد النفسي للراوي الذي أخذ على عاتقه إبراز تغييب الذات والتصادم مع الآخر، والبحث عن الهوية والانتماء، كما يبرز جانب تجريبي آخر يتعامل مع الشكل كما يتعامل أيضا مع بعض التقنيات المستخدمة في القصة القصيرة الحداثي.

كما تمثل شاعرية اللغة في هذه المجموعة كيانا منفصلا عن باقي الأدوات المستخدمة في النصوص والتي تبدو وكأنها محملة بمفردات خاصة تتآلف مع مناخ القصة والشحنة النفسي المسوغة لواقع الشخصية

وهواجسها الخاصة والمتداخلة في صلب الحدث وما يجرى فيه من واقعية مأزومة ومتهرئة في بعض الأحيان

ففي قصة "وخز الأماني" التي أطلقت كعنوان للمجموعة، ومن خلال وخز هذه الصدمة التي أيقظت الراوي من سباته والتي دفعت به في نهاية النص إلى الإحساس بشعور طاغ لخيبة أمل قاسية، ومحاولة الراوي في هذه الحالة التعبير عن هذا الترقب الذي ينتظره في مواجهة ساعي البريد الذي كان يؤدي عمله بطريقة نمطية وفى مواجهة خيبة الأمل التي شعر بها الراوي عندما اكتشف أن الخطاب الذي ينتظره لم يكن إلا خطابا مرتجعا إليه، وأن هذا الترقب الذي ظهر فجأة في الأفق لم يكن إلا سراب واجه به ومعه الواقع بكل ما يحمل من تأزمات، ووخز للأماني المنتظرة . القصة لقطة وامضة تنسج نفسها من الواقع بطريقة قد تبدو عفوية ولكن الدلالة التي تحملها تجعل نهايتها محبطة للمتلقي خاصة هذا البتر للحدث الذي جاء هو الآخر صادما لمشاعره وهواجسه وعلى غير انتظار.

وفى قصة "تداعيات" تبدو هذه العلاقة المتنافرة بين الراوي وأحد أصدقاء الطفولة حينما تقابلا فجأة على غير انتظار والتي تبدو في علاقتهما بأنها تشوبها أشياء غير ظاهرة، ولكنها تتكشف من خلال الممارسات واللقاءات والذي كان منه هذا اللقاء المفاجئ . القصة تنقسم إلى مستويين يلعب بهما الكاتب على مستوى الزمن . مستوى آني يحمل لحظة اللقاء وما فيها من برود ظاهر مستفز ومستوى ثاني يقع في مرحلة

الطفولة وما بعدها حيث يبدو تطور العلاقة وتأزمها وصخبها في بعض الأحيان من خلال العودة إلى الماضي ورؤية كل منهما تجاه الآخر

"رغم ما اعتلج في النفس توا.. ارتقيت درجة الرصيف.. غاصت يدي في يده المتضخمة. "تفضل". بدت عبارته المبتورة، وكأنما كانت محشورة في فيه.. ثم انفلتت"

القصة تتداعى فيها خواطر الذات عبر شريحة نفسية تسبب فيه هذا اللقاء العفوي للراوي مع صديق الطفولة والذي أعاد إلى تلك اللحظة تراكمات الماضي البعيد والذي جاء معبرا عن هواجسهما معا فبدا اللقاء فاترا مهيضا باردا لا يحتمل سوى هذه الهواجس التي جالت بفكر كل منهما تجاه الآخر.

وفى قصة "ترقب" استطاع الكاتب أن يجسد من هذه اللقطة الوامضة المحملة في ثناياها لحظات ترقب مرهفة من خلال هذا الراوي الذي يبحث عن الزمن الضائع بالنسبة له في تساؤل عجز هو عن الإجابة عنه بسبب عطل في ساعته :

على طوار المحطة.. ألحت عليّ رغبة في معرفة الوقت

وعجز هو في نفس الوقت في البحث عن ماهية الوقت، كما عجز أيضا عن معرفة ذات هذا الوقت حيث كانت هواجسه جميعها تتجه ناحية معرفة الواقع الآني الذي تحالفت عليه الظروف للحيلولة دون

بلوغه معرفة الزمن، وبالتالي كان الزمن بالنسبة له هو السؤال الصعب، حتى إنه عندما لاح له عجوز في نهاية القصة يحمل في صدره سلسلة تنتهي يقينا بساعة انفلت منه الزمن وغاب العجوز وراء غلالة من ضوء الشمس لاحت في تلك اللحظة بالذات. القصة تحوي داخلها هواجس الغروب وهو تعبير عن الزمن الضائع المترقب الذي ينتظره كل منا ناحية الجهة المعاكسة.

وفى قصة "خواء" يجسد الكاتب موقفا لعلاقة الألفة الهاربة التي تجمعت عبر أزمان مضت ولكنها تنتهي إلى هذا الخواء الذي أحس به الراوي. هذه اللقطة الوامضة الباحثة عن الألفة الهاربة وسط زخم الخواء قد جاءت في الاتجاه المعاكس للقطة التي جسدها الكاتب في قصة "تداعيات" حيث استقرت نفس لحظة اللقاء، وبنفس الطريقة التي رسم بها الكاتب قصة "تداعيات" من خلال استخدام مستويين في القص، ومن خلال اللعب على وتر الزمن، مستوى زمن القص ومستوى زمن مضى منذ فترة ليست طويلة

احتوت عيناي المقعد الخالي، على الجانب الآخر من المنضدة تشممت عبقا يسكن ذاكرتي.. منذ احتوانا ركن المقهى، ودنا كل منا من الآخر، لامست حواسنا شجوننا .. اكتوينا بنار كلينا.. بات كل منا يلقى بهمومه، لتهوى في بئر سحيق .

وفي قصة "همس الظلال" يجسد الكاتب حالة خاصة من التقاطع مع الآخر حيث الراوي في صدام الظلال الذي يدور في هواجسه يشعر وكأن العالم المحيط به يضيق ويصبح مثل هذه الحجرة المحكمة الغلق التي تحميها القضبان الحديدية المغلقة :

تدور عيناي في المكان محدقة.. النافذة محكمة الغلق تحميها قضبان حديدية متقاطعة.. أكوام السجلات الصفراء المتآكلة تحتل مكتبا، تشرع قوائمه الصدئة في السقوط.. الأبواب الصغيرة المكتنزة تتراص.. تكبلها أقفال صدئة

الشخصية في هذه القصة هي شخصية الراوي المتعبة الحائرة التي لا تدرى ماذا تفعل تجاه هذا الهمس الذي تثيره الظلال من حولها، لذلك فهي كثيرا ما تجد نفسها متقاطعة ومتداخلة مع الآخر، تشعر به لأقل همسة تصدر عنه ولأقل انفعال يصدر منه.

وفى قصة "وسط الأمواج" تبدو شخصية الراوي وكأنها وسط بحر متلاطم الأمواج تعبث به الريح والأمواج العالية وتقذفه بصخبها وعنفوانها المقيت وتحيط به الدوامات في محاولة لطيه داخلها. أما الواقع الذي جسده الكاتب في النص فقد جاء على مستويين المستوى الأول هو هذا الصوت العنيف الطارد للشخصية من عملها والمغلق لباب الرزق والحياة، والمستوى الثاني المتمثل في واقع الحياة الدائرة في شارع الكورنيش القريب من ذات البحر المتلاطم الأمواج. إن الصوت الهادر

والبحر الهادر كلاهما معا يحاصران الراوي في حياته وفي رزقه حتى ليكاد يغرقه ويزهق روحه وسط أمواج الحياة المتلاطمة.

من خلال هذه القصص وباقي قصص المجموعة التي تحمل نفس التجربة التي عبر عنها الكاتب من خلال شخوص وأحداث تجاوزت الواقع إلى ما ورائه من آفاق ورؤى "سقوط الأوراق"، "خطوط.. متقاطعة"، "صدأ المشاعر"، "الضوء والانكسار" ومن خلال استقراء قصص المجموعة كلها تبرز ظاهرة فنية مهمة يمكن تحديدها من خلال هذا الاستقراء وهو ضمور الرؤية الخارجية للراوي العليم، إن كان هذا الراوي يقدم مادة القصة ، أو شخصية تقوم بالدور نفسه اعتمادا على رؤية خارجية، وطغيان الرؤية الداخلية للنص والمغلقة على عالم ضيق ذي مكونات محدودة، لذا نجد أن الكاتب في هذه المجموعة اتكأ على واقع الشخصية ومحورية ما يدور في هواجسها وعبر المكونات الرئيسية للماضي والتقاطعات المختلفة التي تتقاطع مع حاضره خاصة عبر الشخصيات المستدعاة من الماضي والتي شكلت بالنسبة له تداعيات خاصة. وإذا كانت الشخصية في الأدب القصصي بصفة عامة قد نهضت وتكونت من خلال تعارضها مع بنية الواقع الاجتماعى، فإننا نجد أن الشخصية في هذه المجموعة قد جاءت برؤية ضيقة في بعض النصوص ومستلبة مع واقعها في البعض الآخر وقد أرادت هي الظهور على حساب المظاهر الحسية المتواجدة داخل النص، إلا أن انحسار الرؤية في بعض قصص المجموعة قد جعل هذه القصص تتوجه ناحية جانب واحد

وهو جانب الهواجس الذاتية لذا كان الشخصيات عبارة عن نماذج عامة لحالات مهيمنة في البنية الاجتماعية.

كما نجد ذلك أيضا في هذه اللقطات الصغيرة التي فيها يطل الواقع المستمد من الشارع والحارة المصرية الشعبية والمعاملات والممارسات التي تمتلئ بها حياتنا الإنسانية في لقطات بسيطة معبرة استطاع الكاتب أن يحيلها إلى مجموعة من الأبواب الواسعة التي من الممكن الإطلال منها على الواقع الرحب الواسع.

وفى هذه اللوحة القصصية التي جاءت تحت عنوان "تواصل" تبرز أمامنا لقطة تجسد التوتر الحادث بسبب عبثية الإنسان في زمن اللامبالاة. إن لحظة التواصل المنقطعة عبر الشارع بين زميلين متباعدين ترمي بظلالها على هذه اللقطة المعبرة لهذه الأقصوصة. يبدو ذلك من خلال هذا النداء الملّح ومحاولة التواصل الدائبة بين الإنسان والإنسان في هذا العالم المكتظ بالبشر. ولعل الاستجابة الفورية بعد تصاعد لحظة الأزمة في هذا النص كانت هي المحطة الأخيرة الذي جسد فيها الكاتب رؤيته لاحتمال التواصل وحدوث شئ ما على خريطة الواقع"

حينما لمح زميله يتباعد، توقف.. ارتقى بأطرافه مرة أخرى.. بعث بصفيره، متتابعا.. زاعقا بأقصى ما لديه.

من على الرصيف، ومن داخل المحلات، ومن خلف مقاود السيارات.. تدافعت عليه الأصوات.. تدفق السباب.. لكن صفيره ظل يتصاعد بلا كلل حتى التفت زميله، وتواصل صفيرهما معا...

وفى اللوحة الثانية التي جاءت تحت عنوان "توهج" نجد في هذه اللوحة تجسيد الكاتب للوحة واقعية حية ضفرها ببعض مظاهر الأنثربولوجى من خلال بائع البطاطا المتوحد مع عمله وبضاعته حيث يسقط عليها من ذاته ومن واقعه أشياء تحمل بعض دلالات الواقع المسيطر على فكره ورؤيته للحياة. فالدخان المتصاعد من عنق ثلاث مداخن يشبهون الأهرامات الثلاث هو ما يمكن أن يقدمه لزبائنه ليتنبهوا لبضاعته المعروضة فهو يغطي الكفين المتصدرين لمقدمة المعربة بهذا الدخان وكأنه يحاول إبعاد شبح الحسد على عربته وبضاعته الرائجة، بينما هو يضع أيضا لفظ الجلالة في مقدمة العربة وعندها يتفرق الدخان المنبعث من المداخن في شكل دلالي يعرف البائع إنه يخدم واقعه وواقع بضاعته التي يقوم ببيعها

في مقابلة الريح.. يتحول الدخان ناحيته.. يتفرق حول لفظ الجلالة المثبت أعلى الباب الصغير للفرن . يلفح وجهه، فيغمض عينيه، تتابع دفقاته سباقها نحو رئتيه.. يسعل.. يحشرج بصوت مبحوح.. يتنحنح.. ثم يعلو صوته مناديا على (بضاعته المشوية).

وفى لقطة "طلة" يتراوح الواقع بين التلقائية ومحاولات الإطلالة التي رسمها الكاتب من خلال المسكوت عنه الذي يمتلئ به واقعنا المعيش. حيث تبدو العلاقة بين بائع السمك وهذه المرأة التي تطل عليه من شرفتها لشراء بضاعته. إنها تتفاعل معه من عل بتلقائيتها الأنثوية المعهودة عند كثير من النساء الذين يقومون بشراء حاجياتهم من نوافذ أو شرفات بيوتهم. ويقف البائع يتحين الفرصة وهو في خبيئة نفسه يطيل أمد عملية البيع حتى يستلب هذه النظرات النهمة لالتقاط عرّى هذه المرأة التي تقبع في شرفتها العالية، وقد جسد الكاتب هنا دونية البائع من خلال نظراته التي يختلسها ويوظف لها بضاعته للحصول عليها، بينما المرأة تجد في ذلك بعض ما يرضي غرورها فتمنحه فوق الثمن بعض الضحكات

سيفرغ في سلتها ما جهز.. لن تقنع به. سيتعلل بغلو الأسعار.. سيظل يصعد برأسه.. ينزل بها، مرارا، حتى تتمكن عيناه من غزو ما بين نهديها، ولو للحظة.. سيعطيها ما تطلب، ويزيد. ستمنحه فوق الثمن بعض الضحكات.

وفى هذه اللقطة أو هذه اللوحة التي جاءت تحت عنوان "سبابة" يقف صاحب الدكان مع صبيه وقفة خاصة يشير فيها الرجل إلى اتجاه يعجز الولد الصغير عن فهمه، ولكن العجز في حد ذاته يهيمن على واقع النص من خلال عدم فهم الصبي لفكر الرجل، بجانب العجز العضوي الموجود في قبضة الرجل اليمنى والذي يضطر دائما إلى عدم الكشف

عنها ووضعها في جيبه، ولكنه في النهاية يضطر إلى استخدامها عندما هيمن العجز على الفكر وعلى الرؤية التي تشير إلى الاتجاه الآخر:

بلا وعي انسلت يمناه من جيبه.. انفلتت أصابعها الواحد تلو الآخر – من أسر قبضتها – تنقصها (سبابة).. انضغط رأسه أكثر إلى صدره.. امتدت ذراعه – مرتعشة – لتلاصق رأسه، وتشغل يده – مفرودة ما بها من أصابع – الحيز أمام عيني الصبي مصوبة نحو المكان

وفى قصة "بصيرة" يجسد الكاتب من خلال هذه اللوحة الواقعية ملامح رؤية خاصة تتناقض على ما جاء بقصة "سبابة"، فالعجز هنا في هذه اللوحة القصصية واع ومدرك لما هو يرى من خلال بصيرته الذاتية وليس من خلال البصر ذاته، فهذا الكفيف يرى ببصيرته ما يعجز أن يراه المبصر بعينيه، وهو يدرك بهذه البصيرة الأشياء ويوظف حواسه الأخرى تجاه واقعه ونجد في سخريته تناقضا للواقع عندما ربط بين جنون البائع وجنون أسعار الطماطم. وهو في هذه القصة يذكرنا بقصة "الأعمى" لحمود البدوي حينما وظف الأعمى بصيرته النافذة في لحظة شبقية وكانت بصيرته سببا في السقوط في وهدة المسكوت عنه بدلا من توظيفها تجاه مواقف إيجابية.

لا شك أن العناوين التي أنتخبها الكاتب لقصص ولوحات هذه المجموعة تتصدر محور البناء الفني للنصوص ولقطات المجموعة بما ذلك العنوان الرئيسي الذي تصدر الغلاف والذي جاء على شكل مجازى يضع

فيه الكاتب رؤيته تجاه الواقع والذي اختار له عنوان "وخز الأماني" وكأنه بذلك يعبر عن دلالة عامة تنحو نحو الواقع الإنساني، وقد جاءت باقي العناوين كعتبة أولية للنصوص ولكنها تحمل من الدلالات والرؤى ما يجعلها تشارك في بنية النص ذاته، وربما من يتأمل في هذه العناوين يستطيع أن يجد الدلالات قابعة في معانيها "تداعيات" "ترقب" "خواء" "همس الظلال" "سقوط الأوراق" "خطوط متقاطعة" "صدأ المشاعر" "الضوء والانكسار" الخ من العنوانين التي ترصع هذه المجموعة المتميزة.

كما تعتبر مشكلة اللغة من أهم الإشكاليات البنائية والجمالية في القصة القصيرة، فلغة القصة يجب أن تكون قادرة على الاستحواذ على اهتمامات القارئ شأنها في ذلك شأن لغة الشعر وأيضا الإمساك بالموقف كله والتمهيد للحدث وبلورة الفعل ورد الفعل فيه عند الشخصية وعبر الأزمة المتنامية داخله. وفي القصة القصيرة لكل كلمة أهميتها ولكل جملة قيمتها داخل البناء الفني للنص. وكلما ضاقت المساحة في نسيج النص أصبح الاختزال والتكثيف ضرورة والإيحاء والكشف أمر لا بد منه. والكاتب الذي يمسك بناصية اللغة ويتعامل معها في صبر وأناة يستطيع أن يجسد منها موقفا حكائيا بالغ التأثير وبالغ الإبهار من خلال توصيل عالم حي وواقع له مكوناته. والصوت المتوحد في القصة القصيرة هو الصوت الرامي إلى إيحاء ودلالة تستند إلى فكر ورؤية ونسيج يعبر عن الواقع ويقرأ فيه العالم ويسعى إلى تداخل الذات مع العالم في منظومة تتشكل من (موتيفات) بسيطة وأسئلة يجب إيجاد إجابات لها من خلال الواقع وما يدور فيه من ممارسات وأفعال لها طبيعة خاصة.

لقد تعمدنا إنهاء البحث بهذه الكلمة عن اللغة لأن لغة المجموعة قد جاءت متوائمة مع مقتضيات الحال، فشاعرية السرد قد انتظمت حسبما جاءت الرؤية، والعرض اللغوي قد تطابق مع الحس المنتظم لسير الأحداث بحيث عبر الكاتب عن الشخصية والحدث بلغة هي للمضمون منها للغة نفسها الذي عبر عنه داخل النص والنماذج من النصوص كثيرة في هذا الصدد..

وقد استخدم الكاتب لمستويات الكتابة فنية خاصة حيث استخدم بنطا صغيرا للتعبير عن مستويات وبنطا كبيرا للتعبير عن مستو آخر خاصة في النواحي المعبر عنها عن الزمن ..كما جاءت اللغة هي الأخرى رامزة ومعبرة عما يدور داخل هواجس وتداعيات الشخصية. وفى هذا الصدد نستطيع أن نقول أن البطل الحقيقي لقصص المجموعة كانت هي اللغة بجانب براعة الكاتب الذي استطاع توظيف هذه اللغة في تشكيل هذه المجموعة القصصية المتميزة.

وخز الأماني
من معرفة الذات إلى معرفة الآخرين

د. مجدي أحمد توفيق

تمثل مجموعة "وخز الأماني" للكاتب السكندري محمد عطية محمود طريقةً في كتابة القصة أراها قد شاعت في الثمانينيات، وامتد العملُ بها عند كتاب القصة في مصر أوائل التسعينيات، وكان كثيرٌ من النقاد والأدباء قد تواضعوا على وصفها بأنها كتابةٌ بصريةٌ، بمعنى أنها تقوم على رسم صورٍ مرئية، تخاطب فيها لغةُ السرد عين القارئ قبل أن تخاطب أي حاسةٍ أخرى من حواسه، فإذا خاطبت السمع، بالضرورة، في بعض أجزاء المشهد، فإنما تخاطبه وتخاطب معه الشم واللمس والذوق، لأن ما تراه العين لا تكتمل له حسيته ووضوحه للعين بغير هذه الحواس الأخرى التي تساعد العين على تصور الأشياء

وقد يبدو لك أن كل كتابة قصصية لابد لها من أن تخاطبَ حاسة البصر بالضرورة، فما الوجه في تميز هذه الكتابة الموصوفة بأنها بصرية؟ ولكن الكتابة حين تجعل البصر غايتها الأولى تختلف عنها حين تجعل الحكي غايتها المرجوة؛ ذلك أنها في الكتابة البصرية تجعل الحدث مستنتجاً من المشهد الموصوف، وتستغرق في وصف نفصيلاته، ولا تكتفي بأن تخبرنا ماذا يحدث مباشرةً لكي يتجسم أمام أعيننا ونراه.. بعبارةٍ ثانيةٍ تصبح الكتابة نوعاً من الرسم الذي تكتمل فيه اللوحة المرسومة بإضافة

الخط إلى الخط، وسكب الألوان على مواضعها من الخطوط موزعةً توزيعاً يجب أن يكون صحيحاً ودقيقاً.. وكما أن اللوحة مجموعة من التفصيلات والجزئيات فإن الكتابة البصرية تحرٍ جاد للتفصيلات والجزئيات. وهي، على هذا النحو، تجعل الأحداث المروية تتراجع خطوةً إلى الوراء فتقف خلف التفصيلات البصرية لا أمامها، فتصبح موضوعاً لاستنتاج القارئ، لا موضوعاً لتلقيه المباشر..

أما محمد عطية فهو يحاول، في هذا الصدد، أن يخفف من كثافة التفصيلات التي يحملها السرد في لغته ويواجه بها القارئ على الفور، ذلك أن الكتابة البصرية طالما عانت، عند القراء، من كثافة التفصيلات التي يغرق فيها وعي القارئ غرقاً، فتشتته، وتجعل إمساكه بالحدث ــ الذي هو عادةً مناط اهتمام القارئ ومحط عنايته، ومصدر التشويق والجاذبية في كل سرد ــ فإذا بالتفصيلات تصبح عبئاً على السرد، وإذا بالقارئ يميل إلى وصف السرد بأنه غامضٌ، ويميل إلى وصف الغموض بأنه غير مستحب، ويميل، في بعض الأحيان، إلى أن يجعل صفة الحداثي علامةً متداولةً على هذه الحالة..أنا، بالقطع، لا أريد أن أقولَ إن كل كتابة بصرية، أو معنية بالتفصيلات التي تخاطب البصر قبل عنايتها بالحدث الذي ترويه، هي بالضرورة كتابةٌ تعاني من الثقل والكثافة، والغموض، والصعوبة، وإجهاد القراء، وربما من نفورهم أيضاً.. ولكن هذه الكثافة ــ التي لا تخلو عند محبيها من فتنةٍ تعطفهم عليها ــ تظل خطراً يتهدد النص السردي من وجهة نظر كثيرٍ من القراء وبعض الكتاب.. ولا يغامر محمد عطية، في محبته للحداثة، أو للكثافة، بهذا

المصير، بل يسعى إلى أن يخفف عن نفسه، فيجعل الشخصيات في نصه القصصي أقل عدداً، ويجعل التفصيلات أقل كثافة، ويجعل الجزئيات أقل غرابة وأكثر إلفاً، ويجعل الحدث أكثر وضوحاً ..

ونستطيع أن نقول إن هذه الخفة هي السمة العامة التي تطبع لغة السرد عند محمد عطية في "وخز الأماني"، وتحد من جموحها، وتقربها من الواقعية الواضحة، ويساعد محمد عطية على تحقيق هذه الخفة السردية أن قصصه في معظمها شديدة القصر لا تزيد القصة عن الصفحة الصغيرة أو بضعة سطور، وهذا الحجم، من حيث طبيعته الكمية لايسمح بأن يقدم الكاتب قدراً كبيراً من التفصيلات تتزاحم على رأس القارئ، وتشغله بكثرته، وتربك تصوره للأحداث، وأقصر نظرة يلقيها القارئ على قصص المجموعة تكفيه لكي يدرك أثر هذا القِصَر الملحوظ على المجموعة..

ولكن السمة العامة التي تشترك فيها قصص المجموعة – وعددها خمس وعشرون قصةً قصيرةً – لاتمنع الكاتب من أن ينوع نمط السرد الذي يقدمه فيولد منه صوراً مختلفة، متقاربة غير متنافرة، ولكنها تظل تحوي بينها وجوهاً من الاختلاف والتنويع تصنع في داخل قصص المجموعة ألواناً من حيوية التنوع، ربما يشعر بها القارئ شعوراً واضحاً، وربما يشعر بها شعوراً غامضاً غير واضح، ولكنها تستبقي فيه الرغبة لمواصلة القراءة، ومواصلة التساؤل عما يمكن أن يقرأه في القصص التي تنتظره في المجموعة إلى نهايتها..

ويرجع إلى مبدأ التنويع هذا السبب في انقسام قصص المجموعة إلى ثلاثة أقسام، والتقسيم في ذاته يمنح شعوراً مؤكداً لأن القارئ يفترض، على الفور ما أن يرى القصص موزعةً على أقسامٍ أو أبواب، أن هناك فيما بينها تمايزاتٍ استوجبت هذا التقسيم، على الأقل من وجهة نظر الكاتب الذي اصطنع هذا التقسيم المشهود، ويؤدي افتراض التمايزات إلى شعورٍ مؤكد بوجود التنويع بين القصص، تنويعاً قد يمس الحدث المرويّ، أو الزمان أو المكان، أو لغة السرد أو آلياته وطرقه بوجهٍ عام..

ولقد قسم محمد عطية قصص مجموعته إلى ثلاثة أقسام، يمكن أن نطلق على القسم الأول منها اسم "وخز الأماني" على تقدير أنه عنوان أولى قصص القسم، وأولى قصص المجموعة قاطبةً، وعنوانها هو نفسه عنوان المجموعة الذي يتصدر الكتاب كله على غلافه الأمامي، ويضم هذا القسم أربع عشرة قصة.. أما القسم الثاني فقد تولى المؤلف نفسه تسميته، فأطلق عليه اسم "أبواب"، وجعل فيه سبعة نصوصٍ قصصيةٍ، وأطلق المؤلف، كذلك، على القسم الثالث، عنواناً شأن القسم الثاني، وكان العنوان الذي اختاره هو "نوافذ"، وهو أقل الأقسام الثلاثة حجماً؛ فهو لا يضم إلا أربعة نصوص قصصية فحسب من القصص الخمس والعشرين التي تتألف منها المجموعة بأكملها..

وتمتاز القصص في القسم الأول من الأقسام الثلاثة: وخز الأماني، بأنها تسعى، فيما أتصور، إلى مزج هذه الكتابة البصرية بنزعة غنائية ملحوظة فيها، في حين تخف هذه الغنائية كثيراً في القسمين

الآخرين، ويحل محلها وحدة مكانية تجمع قصص كل قسم معاً، فيجمع قصص القسم الثاني: أبواب، معاً وحدةٌ مكانية هي الشارع، إذ تدور أحداث قصص القسم جميعاً في الشارع خارج أبواب البيوت، وتجمع قصص القسم الثالث: نوافذ – على الرغم من قلة القصص في هذا القسم وعددها أربع قصص فحسب – وحدةٌ مكانية أخرى هي المدرسة إذ تدور أحداث قصصها جميعاً في مدرسةٍ ما.. وإذا لاحظنا أن مجموع القصص في القسمين الثاني والثالث معاً هو إحدى عشرة قصة، في مقابل أربع عشرة قصة في القسم الأول، ففي الإمكان أن نقول إن ما يزيد قليلاً عن نصف المجموعة يحاول أن يقدم كتابة بصرية ذات توجهٍ غنائي وجداني في جوهره، والنصف الآخر – أو ما يقل قليلاً عن النصف – يحاول أن يقدم كتابة بصرية أقل غنائية وأكثر رصداً لنبض الحياة اليومية المشهودة في الشارع والمدرسة، أو في الأماكن العامة..

وماذا تحكي قصة "وخز الأماني" سوى حالة القلق والتوتر التي يحس بها الراوي في انتظاره لرسالة تحمل له خيراً: جواب تعيين في وظيفة، أو جواب قرضٍ، أو نتيجة مسابقة يتمنى الفوز بها، أو حوالة من أخيه، فإذا بساعي البريد يأتيه برسالة هي مرتجع، أو رسالة سبق له إرسالها ولكن البريد لم يستدل على العنوان؟

حالة القلق والتوتر – وربما ما يعقبهما من إحباط – هي جوهر النص وما يبقى منه بعد هذه التفصيلات التي لخصناها تلخيصاً في مساحةٍ قصيرة شديدة القصر، والتمركز، في نهاية الأمر، حول حالة، أو مشاعر، أو لون من ألوان المعاناة والوجدان، هو ما يضفي على الخطاب السردي

ولغة القص الطابع الغنائي الذي نشير إليه.. أضف إلى ذلك التراكيب الأسلوبية النعتية التي يضفرها الكاتب في لغة السرد، وهي تراكيب تصنع حالةً غنائيةً ملحوظة.. انظر إلى ابتداء النص بقوله: "اقتحم الصوت الجهوري سكون الصباح.. أيقظني من سباتي، واخزاً جسدي المستسلم" (ص 7) بدأت العبارة بمؤشر سمعي هو هذا الصوت المجهور المجهول الذي اقتحم سكون الصباح اقتحاماً يلخص الصدام بين صوتين: الجهر والسكون.. وتنبهنا كلمة "الصوت" نفسها إلى الطبيعة السمعية لهذا المطلع، ثم تنتقل العبارة في تركيبها الخاص إلى الحدث، وهو استيقاظ الراوي على أثر الصوت الجهوري الذي هتف به، ولكن الحدث يأتي وقد تعلق به ــ وتذيله ــ الحالة الشعورية الداخلية التي تتخذ بهذه الصورة موضع الغاية والمآل والمصب الأخير الذي تتجه التفصيلات الوصفية: الصوت الجهوري وسكون الصباح، وتفصيلات الحدث: الصحو من السبات، إلى أن تصب في مصبها بقدر ما ترتكن عليها..

لقد جعل عنوان القصة الوخز فعلاً للأماني، والوخز هنا أضحى فعلاً للصوت الجهوري يصيب به الجسد الذي كان مستسلماً للنوم، وبنوعٍ من الإيحاء يختلط المادي الجسدي بالروحي المعنوي وتتأسس الغنائية التي تستبطن الخطاب السردي بهذه الصورة.. اقرأ معي هذه الفقرة في ختام النص:

"اتسعت عيناي المقابلتان للوجه الزاعق ..
تعالجان دهشة الاستيقاظ . تعادلت البسمة –
المنبثقة من داخلي – على شفتيّ المتهيئتين

للاستفسار . قلَّب المظروف الأصفر بين يديه .
أسند عليه جدول التسليم . أشر على جانب
أحد الأسطر . ناولني المظروف قائلاً :
ـــ مرتجع .. لم يستدل على العنوان" (ص 7)

وسط هذه التفصيلات البسيطة الكافية، وبلغة حافلة بالصفات، تتداخل الكلمات ذات الدلالة النفسية مع الكلمات الوصفية الخارجية، فتتداخل الدهشة مع الاستيقاظ، وتتداخل البسمة المنبثقة من داخله مع وضع الشفاه في تهيؤها للاستفسار، وتؤكد عبارة "المنبثقة من داخلي" هذا التداخل بين النفسي الداخلي والوصفي الخارجي، ويبث هذا التداخل في لغة الخطاب غنائية محسوسة من الصعب تجاهلها أثناء القراءة، وهي مناط ما نذهب إليه من نصوص محمد عطية في مجموعته "وخز الأماني" إذا كانت تنطلق من نوعٍ من الكتابة نسميه بالكتابة البصرية فهي من ناحية تخفف حمولته من الكثافة، وهي، من الناحية الأخرى، تمزجه بغنائية بارزة.. صحيحٌ أن الإحباط الذي تسببه عبارة ساعي البريد في نهاية النص متروكٌ، لا ينص عليه الكاتب في نصه، وهو فيه يعول على استنباط القارئ وحسن تقديره وصواب إدراكه، ولكن هذا معناه أن القارئ خلال تفاعله مع كلمات النص، من جملة إلى جملة، ينتقل من ضفيرة الوصف الخارجي بالداخلي إلى ضفيرة أخرى تضفر الخارجي بالداخلي، حتى ينتهي النص إلى لحظة يكون عليه أن ينتقل بعدها إلى ما بعد النص،

وهو هنا نتيجة مستنبطة، هي نفسها حالة غنائية أخيرة تبقى مع القارئ بعد نهاية النص محصلةً أخيرة للغته ومعطياته؟؟

على هذا النحو يصبح الوجدان الغنائي مآل النص ومصيره الذي يتجه إليه، وغاية ما يبقى منه، والدلالة المستفادة من الحدث البسيط الذي برويه النص ويدور في مداره.

وتستطيع أن تجد مصداق هذا كله في سائر قصص هذا القسم الأول من أقسام المجموعة بغير حيرة في البحث والتلمس والاستقصاء، بل تستطيع أن تلاحظ حالات غنائية بعينها تعيد النصوص إنتاجها على متنوعة من إعادة الإنتاج، تمثل في حد ذاتها وجهاً ثانياً من التنويع الذي أشرت إليه من قبل قي تقسيم قصص المجموعة وطرق الكتابة فيها.

من هذه الحالات التي تتكرر حالة الغربة بين الصديقين اللذين يلتقيان بعد انقطاعٍ عن اللقاء زمناً طويلاً، وقد تكررت هذه الغنائية في نصوص: "تداعيات"، "خواء"، "خطوط متقاطعة"، "لقاء" فيها يتكرر الحدث الرئيس نفسه، حدث لفاء صديق بعد غياب، يطول زمنه ويقصر من نص إلى نصٍّ آخر، ولكن جوهره يظل واحداً..

ومن الحالات الغنائية التي تتكرر في القسم الأول من المجموعة حالة فقد التواصل مع الآخرين التي تجدها في أكثر من نص؛ تجدها في "ترقب"، و"وسط الأمواج"، و"سقوط الأوراق"، ومثالها في "ترقب" حيث يريد الراوي أن يعرف الوقتَ وهو سائرٌ في الطريق إذا أضفتها إلى ما أسميته قصص الشارع فستجد أن الشارع، بوصفه مكاناً سردياً يشغل مساحةً كبيرةً من المجموعة، فينظر الراوي في معاصم الناس، حيث تلتف

حول المعاصم الساعات، ولكنه لا يجد منهم مَنْ يدله على الوقت، حتى لمح رجلاً عجوزاً يرتدي صديريةً، يتدلى منها سلسلةٌ، تنتهي، بطبيعة الحال، بساعة جيب، على عادة كبار السن من أجيال قديمة، فتأمَّلَ منه خيراً، وأسرع إليه ليسأله معرفة الوقت، ولكن الرجل كان منصرفاً في الاتجاه الآخر.. ولايصنع انصراف العجوز في الاتجاه الآخر حدثاً ذا شأن، ولكنه يظل وحدةً خاتمةً في سلسلةٍ من التفصيلات العابرة كلها تدور حول العجز عن التواصل مع الآخرين.. ولاريب في أن هذه الخاتمة تمنح القارئ استنتاجاً بسيطاً قريب المتناول، عن إحباط الراوي، يشبه ما يُحَصِّلُهُ القارئ من كلام ساعي البريد في "وخز الأماني"، كلاهما يجعل النص يجر ذيلاً غنائياً هو كل ما يبقى في مخيلة القارئ وشعوره عقب القراءة كما تقدم..

وتتميز في القسم الأول ثلاث قصص أولاها قصة "سقوط الأوراق" التي تتميز عن القصص الأخرى بنهاية رمزيةٍ تتمثل في لوحةٍ زيتيةٍ رآها الراوي وهو يغادر حفلاً، فتجذبُ اهتمامه، ويرى فيها ــ أو يصف لنا منها ــ شجرةً جدباء، يستظل بها نصف جسد.. وتستمد اللوحة، بتفصيلاتها القليلة المذكورة، قيمتها ودلالتها من تجانسها مع الحالة الغنائية التي يستشعرها الراوي، حالة الشعور بجدب الوجود، وبالعجز عن التواصل مع الآخرين، أو حصول الجسد على نصفه الآخر بحسب التعبير المتداول عن الزواج..

وثانية القصص المختلفة عن غيرها قصة "همس الظلال" التي لا تكتفي بختامٍ رمزيٍّ في طبيعته، بل تغمر نفسها في فضاءٍ ممسوسٍ بمسٍّ

تجريديٍّ أو رمزيٍّ، رأينا فيها الراوي في حجرةٍ تكومت فيها السجلاتُ الصفراء، وهناك ذاتٌ أخرى تأمره بحفظ السجلات ثم يغيب صاحبها، ولايبقى إلا ظله فوق البناية تارةً، ونظراته النافرة تطالع الراوي خارج الحجرة تارةً أخرى، وإذا به يتقدم من الراوي، ويواصل خطوه حتى يكاد يلامس ساقيّ الراوي الممددتين، وتدور عيناه في المكان، ثم يبتعد مشيراً برأسه إلى المكان الذي أتى منه الراوي، ومضى حتى تلاشى ظله.. ولما كانت الدلالات المباشرة الواضحة، مثلما نقرأ في "الضوء والانكسار"، أو "لحظة فاصلة"، أو "واجهة للعرض" غائبةً، فإن القارئ يُضْطَرُّ إلى قراءة معطيات القصة في ضوء دلالات رمزية، قد يستمدها من أفقٍ اجتماعيٍّ يلوح لنا مع السجلات الصفراء بفكرة عبودية البيروقراطية، أو يستمدها من أفقٍ اجتماعيٍّ سياسيٍّ رامزاً بالذات الغامضة إلى السلطة القاهرة، أو يستمدها من أفقٍ نفسيٍّ رامز بهمس الظلال كلها إلى شعور الإنسان بجدب الوجود، وافتقاده التواصل الحميم مع الآخرين..

وثالثة القصص هي "نفحات" التي تواجه النصوصَ الأخرى بحالةٍ مخالفةٍ مضادةٍ، فيها الراوي أبٌ لثلاث فتيات زهرات، يتحرك حركةً عاديةً في مسار تنقلاته العادية من المسجد إلى بيت العمة، إلى المقهى، إلى بيت أبيه مع بناته، ولكنه، خلال تنقلاته البسيطة، لاينقطع حواره مع ذاتٍ عليا، يتــواصــل معها، يناشدها، يناجيها، تتخذ عند القارئ في يسرٍ صورة الإله الرحيم الذي تتعلق به روح المتدين تبحث عن راحةٍ وتواصل ليست تجدهما – حسبما عرفنا من القصص الأخرى – في الحياة العادية..

مع "نفحات" نصل إلى لحظةٍ تقاوم فيها الذات عزلتها ووحدتها وعجزها عن التواصل مع الذوات الأخرى، وأصبحت مهيأةً لنقلةٍ جديدةٍ تكتشف فيها ذوات الآخرين وما قد تنطوي عليه من جمالٍ أو من قبح..

لقد أصبحت المجموعة في هذه اللحظة مهيأة للانتقال إلى قسميها الآخرين اللذين يحاولان أن يخرجا من رحم الغنائية الذاتية المحدود، إلى أفق المجتمع الرحيب، أو إلى فضاء الآخرين الواسع..

كيلا نطيل فوق الحاجة يكفينا إطلالة سريعة على القسمين الآخرين بنماذج قليلة نحللها تصور لنا يعض ما أسميناه قصص الشارع – وهو قصص القسم الثاني: أبواب – وبعض ما أسميناه قصص المدرسة – وهو قصص القسم الثالث : نوافذ – وهي في القسمين جميعاً قصصٌ تخف فيها حمولة الغنائية والذاتية ولا تنمحي، وتتقدمها تفصيلات المشهد.. ويدل يوضوح على هذا التمايز والانتقال من الانشغال بوجدانات الذات إلى الانشغال بوجدانات الآخرين، انتقال لغة السرد في المجموعة من استخدام ضمير المتكلم في الغالب في القسم الأول ضميراً للراوي، إلى استخدام ضمير الغائب، وما يتصل به من تغييب للراوي في القسمين الثاني والثالث، فإذا كانت ذات الراوي، في الاستخدام الأول، تصبح مركز النص ومدار السرد ومحور الحكي وموضوع المعرفة، فإنها في الاستخدام الثاني تتراجع فيصبح الآخر مركز العناية، وبؤرة الاهتمام، وموضوع الإدراك، ويصير الراوي نفسه عيناً تراه..

وليكن النموذج الأول "بصيرة".. لم يصرح لنا النص بأنه يتحدث عن رجلٍ كفيفٍ، ولكن ما أسهل أن نعرف هذه الحقيقة من السطر الثاني من سطور النص القصير حيث يقول: "راحت عصاه تتحسس خطاه في لهفةٍ.. تطوح رأسه فوق رقبته يميناً وشمالاً، كأنما تصغي أذناه إلى صوتٍ ما". نستنتج من العصا التي يتحسس بها خطاه، ومن حركة رأسه فوق رقبته، ومن إصغاء الأذن إلى صوتٍ غير محدد، أن هذا كله يناسب كفيفاً، ومن هنا تكتسب التفصيلاتُ أهميةً في فهم النص، ولاترتفع بها إلى مستوىً عالٍ من الكثافة، أو الغموض، أو صعوبة التقدير والاستنتاج مما يخشاه بعضُ القراء، ويحبه بعض الكتاب..

وتدلنا الإشارةُ إلى الأذن دلالةً واضحةً على أن حاسة السمع لها وظيفةٌ كبيرةٌ في النص، تنافس حاسة البصر، وتحل محلها، وتتراسل معها، وتقدم للكفيف معطياتٍ يترجمها إلى صورٍ إدراكيةٍ لها قوةُ الصورة البصرية.. وبعد قليل نكتشفُ أن حاسة السمع ليست وحدها في هذا السبيل، بل ترفدها بعونٍ هائلٍ حاسة الشم، وقد تعاظمت الحاستان، رهافةً وانتباهاً، فكونتا عيناً خاصةً للرجل، ولعلها هي ما دلت عليه كلمة العنوان "بصيرة" التي حلت محل كلمة بصر المفترضة في هذا الموضع في استبدال واضح، ذلك أن الكفيفَ يستعين بأحد المارة في سيره من شارعٍ إلى شارعٍ نحو هدفه الذي يسعى إليه، وحين فاجأته رائحة الفسيخ المملح (= الشم) أدرك أنه يجتاز أول تقاطعٍ في زحام السوق، وحين أتاه صوتُ بائع الطماطم (= السمع) كان عند التقاطع الثاني.. وحين أتته روائح الفاكهة (= الشم ثانيةً) كان قد بلغ التقاطع الثالث، وهنا شكر الدليل

الكريم ــ هل كان دليلاً حقاً؟ هل دل على شيءٍ حقيقي؟ هل كان إلا عوناً لحواسَ فاعلةٍ؟، ومضى وحده في الزقاق..

وعلى الرغم من أن قصص المجموعة قليلة الحوار، لايسمح لها قِصَرُها الشديد بأن تورد في ثناياها حواراً طويلاُ، أو معتدل الطول، بين شخصين، غير أن "بصيرة" يمكن لك أن تعدها حواراً متصلاً؛ لأن الكفيف فيها لا يكف عن أن يحاور مصادر الرائحة والأصوات التي يمر بها، وله عند كل مصدرٍ من هذه المصادر تعليقٌ مرح يطلقه ويمضي، ويولد التعليق شعوراً بالعلاقة الحميمة التي تربطه بمفردات المكان وأجزاء الشارع..

لاشك أننا أمام فضاءٍ جماليٍّ مختلفٍ عما كان في القسم الأول، يحاول أن يتجاوز هوة الذات إلى معرفة الآخر، ويحاول، كذلك، أن يتخطى حدود الخبرة التي تحيط بالذات، وحدود معاناتها، وحدود غنائيتها إلى سعة العالم من حولها وأمامها..

ولا يختلف الأمرُ كثيراً في قصة "عقاب" التي تقف على رأس القسم الأخير من أقسام المجموعة.. لا يختلف من جهة التعويل على المشهدية، والوقوف خارج الذات، وإن يكن المكان قد تغير من الشارع إلى المدرسة، والمكانان كلاهما أمكنةٌ عامة وليست خاصة، تمثل فضاءً اجتماعياً أوسع من حدود الخبرة الذاتية.. وفي "عقاب" نرى مدَرِّسة بدينةً منهمكةً في الدرس، ولكنها لم تفلح في أن تلفت انتباه التلاميذ إلى درسها، أو إثارة انتباههم وحميتهم، فإذا هم ينشغلون عن درسها بالمداعبات التي تدور بينهم، وإذا بأحدهم يرمي بصاروخٍ ورقيٍّ، فينتاب

المُدَرِّسةَ غضبٌ هائل فتأمرهم بالوقوف، وتسألهم عمن اقترف الفعلة فلا يحير أحدهم جواباً، فتأمرهم بأن يخرجوا الأوراق استعداداً لامتحانٍ مفاجئ عقاباً لهم، ويستمد المشهد طرافته من عالم المدرسة وشقاوة الصبية فيه..

ومن الطريف أن القصص الأربعة في هذا القسم مرتبةٌ على نحوٍ من الترتيب ترد فيه كل قصةٍ على القصة التي قبلها، وبعد نص "عقاب" يأتي نص "مناقشةٌ حرة" يخبرنا أن المدرسة البدينة قد خرجت من الفصل عتد انتهاء وقتها فدخلت بعدها مدرسة نحيفة حولت الدرس إلى مناقشةٍ حرة ، فتجاوب معها التلاميذ، ونشأ بينهم جوٌ حميم، وكان من المناسب أن تعقب هذه القصة قصةُ "اقتحام" التي صورت لنا ولداً يقفز بالحبل، وبنتاً تسدد الكرة، في تبادلٍ ملحوظٍ للألعاب التي تخص الذكور والتي تخص الإناث، تبادلاً يناسب تحرر الصبية في هذه المرحلة الباكرة من الصبا من خصائص النوع واختلافاته، ويناسب عالم التواصل البرئ الحميم الذي يعيشه الأطفال، وكان من المناسب، كذلك، أن يعقب هذه القصة قصةُ "الهدايا" التي تصور لنا مدرساً يتلقى من تلامذته هدايا كثيرة ليكون هذا المدرس نقيضاً مقابلاً للمدرسة البدينة التي بدات بها القصص الأربعة، كأننا أتممنا دورة تنتهي بالتواصل بين التلامذة ومعلمهم وتبدأ بحالة من حالات الإخفاق في هذا التواصل سببه إخفاق المدرسة في إدراك ميول التلامذة وحيويتهم وإثارة اهتمامهم..

يتجاوز الأمر في هذه القصص الأخيرة التي نومئ لها إيماءً تصوير أجواء اجتماعية محددة من مناحي المجتمع الواسعة، تتجاوزها إلى أن

تستخرج من العالم الاجتماعي عالماً مناقضاً لعالم الذات الذي بدأت به المجموعة، وهو عالمٌ لا تكف فيه الأماني عن أن تخز الذات وخزاتٍ مؤلمة مستمرة..

المحتويات

الدراسات

الكاتب في سطور

- عضو اتحاد كتاب مصر، ونادي القصة

صدر له:

- على حافة الحلم (قصص) ـــ طبعة 1 – 2003
- وخز الأماني (قصص) – طبعة 1 – 2004
- في انتظار القادم (قصص) – طبعة 1 – 2009
- دوامات الغياب (رواية) – طبعة أولى 2009، طبعة ثانية 2015
- تجليات سرد الحياة.. قراءة في أدب نجيب محفوظ (نقد) طبعة 1 2014
- عيون بيضاء (قصص) 2016
- ملامح رواية (قراءة في روايات الألفية الثالثة) (نقد) 2017
- إشكاليات الهامش.. تجليات النص (نقد) طبعة أولى 2017

أجراس صغيرة

هذا الكتاب :

تنساب النقوشات عبر جدران المقهى اللامعة، زجاجية الململس.. تتوزع بانتظام. تعترضها خطوط عريضة متقاطعة موشاة بأغصان ملتفة.. تتفاوت الألوان، وتتقارب.. تحيط بلون الخطوط الرمادي الرصين، لا يقطع تواصلها إلا حدود المربعات الفاصلة. يوقف امتدادها من أعلى إطار خشبي، يتنازع الأسود والبني الغامق لون طلائه. أعالج كوب الشاي بحفنة من السكر. أتناول رشفة منه.. أوقن حاجته للمزيد. تبادر يدي بإخراج الهاتف من جيبي. "**ربما أدركه اتصال، ولم تلتقط رنته أذناي**"